ألا فليقرأ أبناؤنا العلوم لجمالها ولثمراتها وليجدوا في الحكمة والفضيلة

واني أرجو نشر هذا في مجلتكم في أول عدد يصدر تمحيصا للحقيقة ولكم الفضل

الاحاديث الموضوعة

(نقلا عن كتاب اللآلىء المصنوعة)

(٧٩) حدث محمد بن اسمعيل الانصاري عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع الخبز بالسكين وقال أكرموه فان الله تعالى قد أكرمه (قال الدارقطني تفرد به نوح وهو متروك)

(٨٠) عن النبي صلى الله عليه وسلم البركة في صغر القرص وطول الرشاء وقصر الجدول (قال النسائي هذا الحديث كذب)

(٨١) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه النظر الى الحمام (مكذوب)

(٨٢) اتخذوا هذا الحمام المقاصيص في بيوتكم فانها تلهى الجن عن صبيانكم (موضوع . آفته محمد بن زياد) عن فضالة بن حصين

(٨٣) اذا أتى أحدكم بالطيب فليصب منه واذا أتى بالحلوى فليصب منها (قال في اللسان فضالة كان عطارا فاتهم بوضع هذا الحديث لينفق العطر)

(٨٤) عن ابن عباس قال أول ماسمعنا بالفالوذج أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أن أمتك تفتح لها الارض وتفاض عليهم الدنيا حتى انهم ليأكلون الفالوذج قال النبي صلى الله عليه وسلم وما الفالوذج قال يخلطون السمن والعسل فشهق النبي صلى الله عليه وسلم شهقة (باطل لا أصل له)

المنار

غرة شوال

القاهرة في ربيع الاول سنة ١٣٢٨ هـ — ابريل سنة ١٩١٠م

أسرار القرآن

غرة شوال

﴿ تفسير جزء تبارك ﴾

— للفاضل المغربي —

(مقدمة)

ان جزئي « عم » و « تبارك » من أكثر أجزاء المصحف انتشاراً بين تلامذة المكاتب وتداولا بين عامة المسلمين . وأيدي صغارهم . وآياتهما أشد علوقاً بالاذهان . وتكرراً على اللسان . من سائر آيات القرآن . فمن ثم كانا جديرين بان يفسر كل منهما تفسيراً حسن الوضع سهل التعبير بحيث يكون على مقربة من أذهان العامة . ولا تتجافى عنه عقول الخاصة . فيقتصر

لم تتمكن في هذا الجزء من نشر ماكان معدا له من التفسير بقلم حضرة منشي المجلة

فيه من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة والاعراب ثم يشرح المعني المتبادر شرحاً وسطا مجرداً عن التنطع بالمشاغبات . وايراد الخلافات والخرافات . وكان مولانا الاستاذ الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده قدوضع تفسيرا على جزء «عم» توخى فيه هذا النمط والأسلوب فجاء من خير التفاسير وفاء بالقصد . واصابة لمواضع الحاجة . فلا غرو اذا تناولته الالسنة بالثناء وتلقته القلوب بالقبول

وكان بعض الفضلاء قدرغب الي في أثناء اقامتي بمصر أن أضع تفسيراً على جزء « تبارك » أتوخى فيه طريقة أستاذنا المشار اليه فيما علقه على جزء «عم» من حيث السهولة والاقتصار على المفيد من القول . فقلت له . بلغني أن الاستاذ رحمه الله كان قدفسر هذا الجزء أيضاً بعد أن فسر جزء «عم» لكنه بقي في تسويد مشتتة محفوظة عند صديقه المرحوم حسن باشا عاصم وبعد البحث عنها علمنا أن الاستاذ لم يشرع في تفسير جزء «تبارك» بالفعل وانما هو هيأ صحائف بيضاء كتب في رؤوسها آيات ذلك الجزء وتركها ساذجة على أمل أن يستصحبها معه في بعض أسفاره ويملأها تفسيراً وتعليقاً كما كان من أمره في تفسير جزء « عم » الذي ألفه في غضون سفرته الى البلاد المغربية لكنه وا أسفاه قد اختر مته المنية قبل أن تتحقق له هذه الامنية

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارني أو صادفني يسألني عما اذا كنت شرعت في العمل ؟ ويلح علي بوجوب الشروع . فكنت أعتذر بصعوبة الامر . وفقد العدة اللازمة لمثل هذا الطريق الوعر . لا سيما أن تفسير جزء « تبارك » لن ينظر اليه الناظرون لذاته . ومن حيث نسبته لصاحبه . وانما تتعمد فيه المقارنة بينه وبين كتابة الاستاذ رحمه الله فينحط

قدره في عيون القراء . وينسخ ظلامه بالضياء . وبضدها تتميز الاشياء . ثم لما أبت الى وطني طرابلس الشام وبقيت على مواصلة الكتابة في الصحف المصرية رغب الي صديق الاستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز شاويش أن أوافي مجلته (الهداية) بشيء في الموضوعات الاصلاحية الاسلامية . فخطر لي اذ ذاك ما كان ندبني ذلك الفاضل اليه وشجعني عليه من وضع تفسير لجزء «تبارك» وتجددت في نفسي الرغبة في تحقيق الامل وانجاز العمل . ثم موافاة مجلة (الهداية) الغراء به تباعاً منأثراً فيما أكتب من التفسير لامتحذياً طريقة الاستاذ في تعليقه . وقد أشار الى هذه الطريقة بقوله في المقدمة « وقد بذلت جهدي في أن تكون العبارة سهلة التناول خالية من الخلاف وكثرة الوجوه في الاعراب بحيث لا يحتاج في فهمها الا الى أن يعرف القارىء كيف يقرأ والسامع كيف يسمع » والله أسأل أن يمدني بالمعونة والتوفيق فانه سبحانه للدعاء سميع وباجابته حقيق

﴿ جزء تبارك ﴾

جميع سور هذا الجزء أنزلت بمكة ومن ثم كان الخطاب الالهي فيها موجهاً للمشركين . وترى الكلام يدور حول اثبات وجود الله تعالى والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ثم اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه صادق في دعوى الرسالة والوحي ثم تقريع المكذبين وتخويفهم ماهم ملاقون من الحشر والحساب : وأن هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل فيلقي كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاءه اللائق به في داره المعدة له . ووصف هاتين الدارين وصفا بدعاً في أسلوبه . عجبا في وضعه وتركيبه

ويتخلل الآيات تسلية النبي صلى الله عليه وسلم . وتقوية قلبه . وحثه على الصبر . وقص شيء من أحوال اخوانه الانبياء الذين سبقوه ولقوا من أممهم أضعاف ما لقي

﴿سورة الملك مكية وهي ثلاثون آية﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ »

افتتحت هذه السورة بتمجيد الله تعالى المالك لكل شيء والذي خلق البشر واختبرهم باحيائهم وإماتتهم . وخلق السموات على نظام محكم . وزينها بالنجوم . كما جعل النجوم من جهة ثانية رجوما للشياطين الخ (تبارك) في البركة معنى الزيادة والنماء والدوام . فمعنى تبارك الله تعاظم وجلت صفاته وتعالى عن مشابهة المخلوقين تعاليا دائماً لا يعتوره نقص أو انقطاع . و(بيده) الملك أي التصرف المطلق في الدنيا والآخرة . لا شريك له في هذا التصرف (ليبلوكم) ليختبركم

استهل الكلام بان له تعالى التصرف في كل شيء . والقدرة على كل شيء ثم ذكر مثالا من تصرفه وقدرته . فقال : انه تعالى قدر على البشر موتا وحياة . والمراد بالموت الحالة التي يكون عليها الانسان قبل أن يحييه الله . اذ يكون عناصر متفرقة لا حياة فيها ولا شعور . ثم انه بعد ذلك يسلط على تلك العناصر من نواميس قدرته وحكمته ما يجعلها حية مدركة . ولم هذا ؟ لانه تعالى يريد أن يختبر الانسان أي يعامله معاملة المختبر الممتحن . فيظهر

أمره . ويعرف مقدار طاعته وميله الى الفضيلة . ومبلغ عصيانه وجنوحه الى الرذيلة . وانما قلنا في معنى الابتلاء هذا لانه تعالى يعلم أمر الانسان من دون اختبار ولكن الانسان نفسه والناس لا يعلمون . حتى اذا علموا حقت الكلمة وقامت الحجة وانقطعت المعاذير

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ)

(طباقا) مصدر طابق النعل خرز طبقاته بعضها فوق بعض . أو هو جمع لطبق كجبل وجبال أو لطبقة مثل رحبة بالتحريك وهي الساحة اذ يقال في جمعها رحاب . والسموات السبع هي طرائق السيارات ومداراتها . ولا ريب أن تلك المدارات طبقات . طبقة أدنى من طبقة وفلك أعلى من فلك . وانما جعل السموات سبعاً مع أن العلم الحديث أثبت أنها أكثر من ذلك لانه تعالى انما يخاطب القوم وقت البعثة بما ألفوا وتعورف بينهم ليحدث الخطاب في نفوسهم عبرة واذعانا . وهذا هو جل القصد من ذكر السموات في القرآن الكريم . وليس القصد تقرير حقائق في علم الهيئة والا فلو قرر تعالى هذه الحقائق كما هي في الواقع لتوهي الامر فلم يعودوا يعرفون ان كانوا مكلفين تعقل وجود الله وصفاته أم تعقل مسائل علوم ومبادىء فنون ؟

(تفاوت) اختلاف وخلل . (فارجع البصر) أي انظر مرة أخرى نظرة متفحص متأمل . فقد تكون نظرتك الاول مجردة عن ذلك . (فطور) جمع فطر وهو الشق والصدع في الشيء . والمراد هنا الخلل وعدم التناسب

. (كرتين) مرتين . والمراد بالتثنية التكثير كأنه يقول ثم ارجع بصرك المرة بعد المرة بدليل مايعده لان البصر لايكل بمجرد النظر مرتين اثنتين . وانما يكل ويتعب بالنظرات الكثيرة. وهذا مثل لبيك وسعديك . فان التثنية فيهما للتكثير . (خاسئاً) اسم فاعل من خسىء بمعني تباعد بذلة وصغار. ومنه قولهم للكلب اخسأ . فاذا تكررت النظرات ولم تجد خللا فى خلق الرحمن رجعت بعيدة عن نيل مطلوبها واصابة غرضها . (حسير) كليل يعني من كثرة مابحث فلم يجد. وهذه الآية مثال ثان من أمثلة سعة ملكه وشمول قدرته

ذكر في صدر السورة انه تعالى بث الحياة فى البشر بعد أن كانوا عناصر ميتة لا شعور فيها . وذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالي خلق سبع سموات يعلو بعضها بعضا . وأنك لا ترى عند التأمل فيها خللا فى وضعها ولا تشاخسا بين أجزائها حتى اذا ارتبت في صدق هذا القول فألق بأشعة بصرك على الكائنات متفحصا . وانظر هل تجد خللا؟ ثم اذا لم تطمئن للنظرة الاولى أعد نظراتك مرارا . فلا جرم اذ ذاك أن يكل بصرك وتخطىء الغرض المطلوب

والخطاب في قوله و (ما ترى) و (فارجع) و (ثم ارجع) لكل امرىء يتأتي منه الريب والشك في مبلغ القدرة الآلهية لا لواحد بعينه

وهذه الآية الناطقة باحكام خلق الكائنات واتقان صنعها أيدتها تجارب العلماء الباحثين في المادة ونواميسها . والخليقة وأسرارها . فانهم قرروا بعد النظر الدقيق أن العالم جميعه من أصغر ذرة فى الهواء الى أكبر جرم في السماء خاضع لناموس واحد . ومتماسك بنظام عام شامل . لايمكن حصول خلل فيه . ولا طروء شذوذ عليه . فتبارك الله أحسن الخالقين

ومن طريف ما يقال هنا أن الله تعالى انما ذكر من السموات التى خلقها سبعا فقط : لانه أحال البشر الذين في زمن نزول الوحي على النظر والتأمل فى تكوينها وأوضاعها ليروا أن كان فيها خلل أم لا . وليكون ذلك آية على وجود الله تعالى وجلال صفاته وهم فى ذلك العصر لم يكونوا مقتدرين على النظر فى غير السموات السبع أو السيارات السبع ذوات الافلاك السبع مما عرفه الاوائل . أما النجوم الثوابت فلم يكن لينتظر من الموجودين فى زمن الوحى أن يرجعوا نظرهم فيها ليروا ان كان فيها تفاوت أم لا . وذلك لبعدها وعدم معرفة الاوائل ما عرفه المتأخرون من طبائعها ونواميسها

وأما فلكا (أورانوس) و (نبتون) أو السماآن اللتان يسبح هذان السياران فيهما فلم يكونا قد اكتشفا بعد فى ذلك العهد . فلو احال الله المخاطبين في قرآنه على ما لا يمكنهم النظر فيه والاحاطة به واستمداد التصديق بالله منه أعني النظر فى النجوم الثوابت والفلكين المذكورين لكانت احالته عبثا . وتكليفه محالا . وهو غير جائز في الشرع وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ »

(الدنيا) تأنيث أدنى . وهو صفة للسماء أى السماء التي هى أقرب الينا من سائر السموات (بمصابيح) جمع مصباح وهو السراج . وقد أراد بها النجوم التي تضيء نواحى السماء على طريق التمثيل . ولا يقال أن معظم النجوم التى نراها في السماء الدنيا انما هى نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها لاننا نقول ان تلك النجوم الثوابت هي من زينة السماء الدنيا فى بادىء النظر وان كان مركزها ما ذكر . فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين

جعلها زينة للسماء الدنيا

(رجوما) الرجم فى الاصل مصدر رجمه اذ رماه بشيء . ثم سمي الشيء الذي يرجم به رجما تسمية بالمصدر . وجمع على رجوم مثل فلس وفلوس (والشياطين) طائفة من المخلوقات لانعرفها بحقيقتها وانما نعرفها بآثارها . ومن جملة تلك الاثار خواطر السوء ، ونزوع أنفسها الى الشرور . (وأعتدنا لهم الخ) اي وأعددنا لاولئك الشياطين عذاباً توقد فيه النار اشد إيقاد وهذا هو معني السعير . ذكر فى الاية السابقة السموات وإحكام صنعها وذكر هنا مافيها من النجوم المتلألئة وقال ان تلك النجوم جعلت زينة للسماء ورجوما للشياطين ولاينا فى هذا أن تكون خلقت لمصالح . ككونها علامات يهتدي بها المسافرون فى ظلمات البر والبحر . اذ ليس فى الآية مايستدعي الحصر . ومعني جعل النجوم رجوما أنها سبب للرجوم ومصدر لها . والافان النجوم أجرام كبيرة ثابتة فى مراكزها أومتحركة فى أفلاكها . ولا يمكن حسبما عرف من السنن والنواميس التي قيدها بها خالقها أن تدع تلك الاجرام مراكزها أو تخرج عن مداراتها وهي بحيث وصفوا من كبر الحجم . وتسعى وراء الشياطين والعفاريت . وانما تكون النجوم منشأ للرجوم . ومصدرا لها . فالرجوم وهي الشهب أجرام صغيرة منفصلة عن النجوم وسابحة في الفضاء . حتي اذا اقترب منها واحد من تلك الارواح الشريرة المسماة شياطين انقضت عليه بهيئة شعلة نارية وأحرقته . ولا يقتصر في التنكيل به على ذلك . بل قد هيء له فى الآخرة عذاب السعير جزاء تصديه لاستراق خبر السماء

ويقول العلماء المتأخرون في سبب انقضاض هذه الرجوم المسماة في اصطلاحهم نيازك انها بعد انفصالها عن الاجرام السماوية تبقي سابحة في

الفضاء . حتي اذا اتفق اقترابها من كوكب آخر ودخلت في منطقة نفوذه جذبها اليه بسرعة هائلة . فتحترق وتذهب هباء منثورا . أو تبقي منها بقية تسقط على سطح الارض وهي مايسمونه الحجر النيزكى

ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد في القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين . واذا لم يفهم العلم هذه القضية فذلك لانه لم تتيسر له أسباب فهمها الى الآن . ويكفينا فى صحة الايمان بها على ظاهرها أن العقل لايجعلها من المحالات العقلية

ولبعضهم في تفسير جعل النجوم رجوما للشياطين كلام بديع نقوله وياحبذا لو نقول به وهو :

الرجوم واحد الرجم وهو أن يتكلم المتكلم بالظن والتخمين ومنه قوله تعالى « رجما بالغيب » فالرجوم بمعنى الظنون . أما الشياطين فالمراد بهم شياطين الانس وهم المنجمون الذين اتخذوا من النظر في نجوم السماء والتكهن عن أمور المستقبل بما يبدو لهم منها . صناعة لحمتها الرّجم وسداها الوهم

فالباريء تعالى يقول . انه خلق النجوم فكانت زينة للسماء من جهة . وقد اتخذها أولئك الكهان وهم شياطين الانس وسائل للتنجيم وافساد أمر الناس من جهة أخرى . فلا بدع اذا أعدت لهؤلاء الشياطين النار يصلون سعيرها ويذوقون عذابها . ومعنى كونه تعالى جعل النجوم ظنونا للمنجمين أن ذلك كان من نتائج خلق النجوم . وانه حصل بارادته وتقديره لا أنه شرعه ورضى به كما رضي بان تكون النجوم زينة ومصابيح للسماء اه

(يتلى)

اللغة والأدب

اللحن الشائع

﴿ تحرير طائفة من الالفاظ ﴾

(٢)

ومن اللحن الشائع قول بعضهم (فلان يأدُب على صحبه) يريد أنه يدعوهم الى طعام يصنعه. فيجعل الفعل من باب نصر. والوجه فيه (يأدِب) بالكسر فهو من باب ضرب. تقول أدَبت آدِب أدْبا . فأنا آدِبٌ أي صانع مأدبة (بضم الدال على المشهور وفتحها على الجواز) وقال طَرَفةُ

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

أي أنا في القلة نعمّم الدعوة للطعام . ولا ترى داعياً منا يخص بالدعوة بعضاً دون بعض . وهذا نهاية الكرم

ومنه قول القائل (جاءوا على بُكْرَة أبيهم) يريد أنهم أقبلوا جميعاً . والوجه في المضاف الى أبيهم (بَكْرَة) . ولبعض أئمة اللغة في تفسير هذه الجملة أقوال

روي ابن برّي عن ابن جنّي ان قولهم جاءوا على بَكْرَة أبيهم بمعنى أنهم جاءوا باجمعهم هو من قولهم بَكَرْت في كذا أي تقدمت فيه ومعناه جاءوا على أوليتهم أي لم يبق منهم أحد

وقال الاصمعيّ أن المعنى إنهم جاءوا على طريقة واحدة

وقال أبو عبيدة معناها جاءوا بعضهم في أثر بعض وليس هناك بَكْرَة في الحقيقة (وهي التي يستقي عليها الماء العذب) فاستعيرت في هذا الموضع وانما هي مثل

وقال أبو عمرو معناها جاءوا باجمعهم

وفي الحديث جاءت هوازن على بكرة أبيها . وهذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفير العدد وأنهم جاءوا جميعا لم يتخلف منهم أحد

ومنه قوله (الجدري) يريد المرض المعروف الذي من أعراضه نفطات حمراء تظهر على وجه المصاب به وقروح تتنفط عن الجلد. والصواب (الجُدَري) بضم الجيم وقد ورد بالفتح أيضاً. قال في اللسان . فمن قال الجُدرىّ نسبه الى الجُدَر . ومن قال الجَدَري نسبه الى الجَدَر . قال ابن سيده هذا قول اللحياني وليس بالحسن

ومنه قوله (صوت جَهُوريّ) يريد أنه عال . والوجه في هذا الحرف (جَهْوَرى) قال في اللسان . أجهر وجَهْوَر أعلن به وأظهره. ويعديان بغير حرف .. وقال بعضهم جهر أعلى الصوت وأجهر أعلن .. ورجل جهير الصوت عاليه وجَهْوَرىّ الصوت رفيعه .. قال وفي حديث العباس انه نادى بصوت له جَهْوَريّ أي شديد عال . والواو زائدة وهو منسوب الى جَهْوَر بصوته. وصوت جهير وكلام جهير كلاهما عالن عال

ومنه قوله (وُجدان) في مصدر وجد الوجه (وِجدان) بالكسر . وقد يستعمل الوجدان في الوُجد. والوُجد السعة واليسار . وقد قرىء بالثلاث . قال صاحب اللسان مستشهداً : وورد الحمد لله الذي أوجدني بعد فقر أي أغناني وأجدني بعد ضعف أى قواني

ومنه قوله (حَدَثان) الامر يريد أوله أو ابتداءه . والوجه فيه (الحِدْثان) قال صاحب اللسان بعد أن أورد حديث عائشة « لولا حِدْثان قومك بالكفر لهدمت الكعبة وبنيتها » حدثان الشيء بالكسر أوله وهو مصدر حدث .. والمراد بالحديث قرب عهدهم بالكفر والخروج منه والدخول فى الاسلام وأنه لم يتمكن الدين من قلوبهم فلو هدمت الكعبة وغيرتها ربما نفروا من ذلك

ومماثل هذا الخطأ قول بعضهم (حِدْثان) الدهر يريد صروفه ونوبه . والصواب (حَدَثان) وهو الحوادث وواحدها حادثة والاحداث وواحدها حَدَث . قال والاحداث الامطار الحادثة فى أول السنة أيضا . وعن الازهرى ربما أنثت العرب الحَدَثان يذهبون به الى الحوادث . وقال الفراء تقول العرب أهلكتنا الحدثان . وذهب أبو علي الفارسى الى أن الحوادث توضع موضع الاحداث وهذه مكان تلك . واستشهد على مذهبه بقول الاعشى

فاما تريني ولى لِمّة فان الحوادث أودى بها

وقول الشاعر

ألا هلك الشهاب المستنير ومد رهنا الكمي اذا نغيرُ
ووهّاب المئين اذا ألمّت بنا الحَدَثانُ والحامى النصورُ

ومن اللحن الشائع أيضاً قول بعضهم (كشّر) فلان يريد تبسّم . والصواب ترك التضعيف . قال صاحب اللسان قال الجوهري الكشر التبسم يقال كشر الرجل أو ذكل وافتر وابتسم كل ذلك تبدو منه الاسنان . وقال ابن سيدة كشر عن أسنانه يكشر أبداها يكون ذلك فى الضحك وغيره ومن الخطأ في هذا الحرف قول القائل كشّر فلان لفلان يريد تنمر له أو تغضب

والصواب في هذه اللفظة كما قدمنا ترك التضعيف

ومنه قوله (اللَّثة) بالفتح للحم الاسنان والصواب (اللِّثَة) . قال فى لسان العرب قال أبو منصور وأصل اللِّثة اللثية فنقص . وعن الجوهرى أصلها لثيٌ والهاء عوض من الياء . وعن ابن جني رواية لابن برى انها محذوفة العين من لثت العمامة أى أدرتها على رأسي

ومنه قوله (مَشاحة) في لامشاحة فى هذا الامر مثلا . والصحيح (مُشاحّة) تقول تشاحّوا فى الامر أو تشاحّوا عليه أى شحّ به بعضهم على بعض وتبادروا اليه حذر فوته . وتقول هما يتشاحّان على الشيء اذا تنازعاه يريده لنفسه كلٌ منهما

ومنه قوله (يمشط) من مثل فلان يمشط شعره . وصحيحه (يمشُطُ) وقد ورد بالكسر . فهو من بابي نصر وضرب . والمُشاطة بالضم ماستط من الشعر فى الترجيل . وورد المُشط بالثلاث وفيه لغة رابعة أوردها ابو الهيثم وهي ضم الميم والشين وتشديد الطاء واستشهد على ذلك بقوله

قد كنت أحسبني غنيا عنكم ان الغنى عن المُشُطِّ الاقرعُ

ومنه قوله (المَكْرَمة) يريد مفعلة من الكرم . ولم يجيء هذا الوزن بهذا المعنى . وانما يقولون أرض مكرَمة أى معدونة مثارة . وهذه بقعة مكرَمة للنبات اذا كانت صالحة له . فالقائل يريد (المكرُمة) وهي مفعلة من الكرم . قال فى اللسان قال الفراء مكرم جمع مكرمة ومعون جمع معونة . وقال الكسائي ولم يجيء على مفعل للمذكر الا حرفان نادران لا يقاس عليهما وهما مكرم ومعون

ومنه قوله (سِجن) من مثل أمر القاضي بسجن فلان . والصواب

(سَجن) مصدر سجن يسجن أى حبس يحبس . والسجن هو الحبس . وقد ورد ما شئ أحق بطول سَجن من اللسان

ومنه قوله (سودد) يريد المصدر من ساد . والصواب (سؤدُد) ويجوز فتح الدال الاولى . قال فى لسان العرب السؤدُدُ الشرف معروف وقديهمز وتضم الدال طائية (على لغة طى ء) وقد سادهم سوداوسودداوسيادة وسيدودة واستادهم كسادهم ثم قال وهم سادة وتقديره على فعلة أى سودة وهي الاصل فتحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا

ومنه قوله (عَلِيّة) فى مثل هو من علية الناس يريد أشرافهم . والوجه فيه (علية) قال فى اللسان ومثله صبي وصبية . وهو جمع على أى شريف رفيع . وفلان من علِّية قومه وعلِّيهم وعلِّيتهم قال الازهري وعِلِّيَّة أكثر من عُلِّيَّة

ومنه قوله (فُقدان) وهذا الحرف بهذا الضبط كثير الشيوع . والصواب فيه (فِقدان) بكسر الفاء . تقول فقد الشيء يفقده فقدا وفقدانا وفقودا فهو مفقود وفقيد عدمه

ومنه قوله (التَرجُمان) لمن يفسر لسانا . والصواب فيه (التَرجُمان) أو (التُرجَمان) المفسر للسان بالضم أو الفتح (هو الذي يترجم الكلام اي ينقله من لغة الى أخرى) ثم قال والجمع تراجم والتاء والنون زائدتان وقد ترجمه عنه وترجمان هو من المثل التي لم يذكرها سيبويه . كذلك قال صاحب اللسان والله أعلم

« يتلى »

اللمحات

(١)

عظة الي السكاري

اذا أراد المستفيد أن يستزيد من العلم ويسترسل في طلب الحكمة فليس للعلم موطن واحد ، ولا للحكمة مقر معين ، وانما هو يجد فى كل مكان مدرسة ، ويتلقى من كل حادثة درسا ، ويظفر في مسيل كل طريق بعلم . لان المدرسة النظامية التى يتحرك الطالب منها في دائرة ذات وسط محدود ويرسف عندها في قيد من القانون ، ويجرى فيها على نمط متسق من التحصيل واحدة لا أكثر ، وليس فيها الا الكتاب والاستاذ وهذان يضمان الطالب في بعض منازل العرفان ، ولا يكفلان له مع ذلك أن يبقي فيها طويلا ، وانما يترقى به من تلك المنزلة الى ما فوقها ما يكتسب من صنوف التجريب والاختبار ، اذ أن العلم ناقص لا يكمل الا بالدربة والميزان على معرفة الاشياء والحوادث والناس

فاذا لم يستطع المتعلم أن يعطى المُثُل والنماذج على ما تلقى فى المدرسة من القواعد والاصول بما يستفيد من التجربة الذاتية والخبرة الشخصية ، فانه لم يصنع شيئا ، ولا تلبث تلك المجموعة المستقرة في ذهنه أن تتحول أداة في يده لا تصلح الا لاستفتاح باب الرزق

وترى من ذلك أن جهد المدرسة أنها تسوق الفكر فى سبيل الادراك وتقيم العقل فى طريق العلم ، أما أنها تضمن للمتعلم أن يصل الى الكمال المقدور للانسان فهذا مالا يكون الا اذا ضمن المسجد للمتعبد أن يصل الى الجنة

بلا سعي ولا زاد خلا ذلك النصيب الضئيل من الايمان

ولقد رأيت رغبة في الاستفادة أن أخوض في مسيل طريق لا تنقطع منها المارة بين طرفي الليل وحاشيتي النهار ، لعلي أشهد حادثة آخذ منها عبرة وأتلقى حكمة ، أو أمر بمكان فيه ما ينفع في الدنيا أو يبصّر بشيء في الدين فما زلت أتنقل من ممر الى ممر ، ويسلمني مسلك الى مسلك ، حتى وقفت أمام قهوة ضمت الى اليقظ الحيي المدمن الصريع ، وجمعت بين الوقور المهيب والماجن الخليع ، واحتوت الموظف الكبير والخامل الوضيع ، فقلت في نفسي : هكذا الدهر يداول بين الحالين ، كان الآباء يرون الدخول الى هذه القهوات خروجا من الكمال حتى مضى عن الدنيا جماعة منهم ما رأوا لها ظلا ، وبقيت من هذا الطراز بقية ما عرفوا لها شكلا ، وأصبحت اليوم رواقا للمجاور ، ومدرسة للطالب ومجلسا للكاتب والشاعر ، ومسامراً للصانع والتاجر ، كما أمست مجتمع العمدة والمدير ، وملتقى الوكيل والوزير ، ومنتدى صاحب السعادة السري وصاحب الدولة الامير ،

شهدت هذا المشهد فاحببت ان لا أمر به مرا ولا مللت الى كرسي هناك وما هو الا أن سكنت نفسي واستقر بي المجلس ، حتى أخذت أتأمل فيما حولي وأجيل النظر ذات اليمين تارة وذات الشمال أخرى وأتلفت الى الوراء حينا وأتطلع الى الامام حينا ، وأنا أترصد سوانح العظات ، وأتلمس مواقع العبر ، فاول ما راعني أن رأيت من أهل التطفل والفراغ عصبة هم أساطين الغيبة وأركان الاعتراض اذ هم لا يخلون عاملا من تزييف ما عمل ، ولا مؤلفا من التمالح على ما ألف ، ولا كاتبا من التنادر على ما كتب وقليل من أولئك من يجيد فهم مواقع الكلام أو يحسن تركيب كلمة الى كلمة في صورة عليها من الصحة ظل ، فاطرقت أفكر في شأن هذه العصبة وأعظ

نفسي أن يمسها الغرور ، أو تستميلها الدعوي ، وتعبث بها الانانية الكاذبة وقلت لو أراد كل من هؤلاء أن يحسن الى نفسه لا نزلها حيث أنزلتها الفطرة ، وزاول من العمل ما وجد منها عليه القدرة ، ولو فعل لما كان لاحد في رقبته حق ولكن الناس أجناس

وقد سئمت المكث في ذلك المكان فتحولت أريد غيره وفيما أنا كذلك بصرت بشابين عليهما آثار النعمة والترف وفيما كان منهما عبرة لاهل الاعتبار وذكري للذاكرين

وما كنت لاخطرهما علي بالي أو أجعل لهما في خاطري ذكرا وأمثالهما كثير سواء في الزي أو في الشأن لولا أني رأيت منهما ما استوقفني بين الحيرة والدهش ، وعلمني أن الظواهر تخدع الرائين ، وأن الباحث الاخلاقي قبل أن يحكم على انسان بما يسوء أو يحكم له بما يسر يجب أن يمتحن الطبع ويبلو السريرة وينفذ بصيرته الى ما وراء هذا الغشاء المسدل على النفس ليعرف مخبرها ويمس جوهرها

جلس هذان الشابان تحف بهما السكينة وتقع العيون منهما على المهابة فيغض منها الوقار ، ولبثا ما شاء الله يتجاذبان أهداب الحديث في فنون من المباحث شتى وهما في عذوبة حديثهما حينا وبلاغة صمتهما حينا موضع التجلة والاكبار

فأدنيت كرسي من كرسييهما وتلهيت بصحيفة في يدي نحو ساعة ثم رأيت أحدهما يسر الى الساقي في أذنه حديثا لم أسمعه فما عتم أن جاءهما بالزجاجة والكأسين والنقل وانصرف الي غيرهما ، ثم جعل ذلك الداعي الى السوء يلح على جليسه أن يشترك معه في الشرب وهو يأبى . وكلما زاد ذلك

توسلا ورجاء زاد هذا تصلبا وإباء ، فلم يجد مندوحة من الشرب وحده فشرب ثم شرب حتى حسب ظلال الاضواء ، لجة من الماء ، ولم يبق بينه وبين نفسه اتصال ، فتقم من منزله أن لا ينتقل اليه وهو في مكانه ، وهذه منزلة في الجنون لا يصار اليها الا بخذلان من الله تعالى

فدهشت لهذا التباين في المشرب بين الصاحبين وعجبت لذاك كيف لا يكون له في رفيقه معتبر ولهذا كيف أمن أن تتأثر نفسه وتلمس العدوى أخلاقه فيغلب على أمره ، وأحببت أن أصل معهما الى النهاية ، فاذا الاول يتحرك بلا وعي ويهذي هذيان المحموم ثم استجمع ما بقي فيه من القوة وقال لصاحبه « اشرب ولو كأساً واحدة » فلم يكد ذلك الرزين العاقل يسمع هذه الكلمة حتى غضب جد الغضب وكره من صاحبه أن يدعوه الى مثل ما صار اليه ، فوقف في الجمع وخطب قائلا

« ياغواة الكؤوس ومراض النفوس من لم يستحي منكم نفسه فليستحي الناس والا فليستحي من ربه ، ان هذا الذي تشترونه ذهبا سائلا بذهب جامد نارا تلوى علي ما تتلف من دم وعقل : فان غركم أنكم تجدون في الخمر لطفا فان الشرارة كذلك يتبينها الناظر لطيفة الاتقاد ، سريعة النفاد ، أو خدعكم أنكم تحسون لدبيبها في المفاصل خفة فان من الامراض ما يسري في الجسم ضعيفا خفيفا فان تمكن أعضل ، وأن ضرب أثقل ، أو حببها اليكم أن الشارب يستشعر أن نفسه انتقلت من هذا العالم الى عالم آخر ألطف نسيما وأتم نعيما فتلك خدعة من خدع الخيال وحيلة من حيل الشعر

ياعقلاء المجانين أو مجانين العقلاء أمسكوا عليكم أموالكم واستبقوها واحفظوا هذه الاجسام ولا تضيعوها ، واحترموا تلك الانفس وهذبوها ،

فقد علمتم ان الخمر متلفة للمال والصحة والانفس ، واذا لم تقدكم العبر فليكن لكم من الدين وازع يزع ، وهاد يدعو فيتبع ، والا فهؤلاء هم الاجانب من أجناس مختلفة عن أيمانكم وشمائلكم هل ترون منهم من تدله في عشق الخمر الى هذا الحد ؟ لقد أخذتم المدنية بالعين لا بالعقل ، فرأيتم أسوأ الآثار في نفوسكم ، وضعتم بين الكأس والطأس وضاع مالكم بين التقليد والتجديد »

ألقى الخطيب على البديهة هذه الحكم فعلمت « أن هذا الزمان بالخطباء » اذ بالغ من تأثير خطبته أن رمى بعض الشاربين بما في كأسه وهو يقول « وللارض من كأس الكرام نصيب » ومنهم من كسر كأسه ودفع ثمنها وهو يقول « هذا هو الحد بين الجد واللعب » وشهدت أثناء هذه الخطبة أن المارة كان يستوقفها الصوت فتجتمع صفا صفا فسررت أن كان للعظة النافعة هذا التأثير ، ثم أوجست خيفة أن تفنى هذه الحمية في الطريق ، وأكبرت الخطيب وأشفقت أن يصيبه صاحب القهوة باذى بعد أن ذم ذلك السم في صيدليته ونفر منها من يختلفون اليها ، فاخذته من يده ثم قلت له متلطفا به ، كان لك أن تلقي هذه الخطبة في ناد أو تنشرها في جريدة ، فقال أن الطرق كما قال حكيم شعراء العصر مدارس العامة وكما يؤبن الاموات في القبور ، يوعظ في الحانات صرعى الخمور ، فضممت هذه الحكمة الى ماسمعت منه من الحكم وأزلفت اليه ما حضرني من عبارات الثناء ، وتلفت بعدئذ يبحث عن صديقه ورفيقه فرأيته يغط في نومه ولا أقول عنه أكثر من ذلك وتعاونا فحملناه على عربة وهو بين الحياة والموت وجئت أنقل هذه العظة الى السكارى

الاصلاح والعمران

﴿ الشريعة الاسلامية ﴾

والشوري

كنت قرأت في أنباء الاستانة أن حكومتنا العثمانية تريد أن توفد عبيد الله افندى الحر المشهور الى القطر اليمانى لاجل أن يعلم بالدستور وينشر مبادئه بين الاهالى ويقنعهم بان الحكومة الشورية والمجالس النيابية لا تنافي أصول الشريعة الاسلامية

وقد أحببت أن ألم بهذا الموضوع الآن . وأبين بالدليل والبرهان أن روح الحكم الدستوري مما يأتلف مع روح الاسلام . وأن مبادئه أو القالب الذى يفرغ فيه أن ذهل مسلمو الصدر الاول عن تحديه والجرى على سننه فليس ذلك الا اتفاقاً أو لاسباب عرضية ليست من منافاة الدين الاسلامي في شيء

ولاجل أن يستوفى القارىء الكريم هذا الموضوع تعقلا وفهما أقتله له تبياناوبحثا فأقول

كان للاثينيين والاسبرطيين والرومانيين حكومات دستورية اهتدوا اليها بطول تجاربهم وارشاد فلاسفتهم مثل سولون وشيشرون وغيرهماوقد وضعوا لتلك الحكومات وانتخاب رجالها ترتيبا ونظاما خاصا أخذوا على أنفسهم صيانته ومقاومة كل من يتعرض له . فكان الواحد منهم يفتك بأعز الناس عليه اذا رآه انتهك حرمة هذا النظام كما فعل (بروتس) بصديقه

الحميم يوليوس قيصر . وقد جنت تلك الامم القديمة ثمر الفتح والنصر وسعة السلطان من أغصان هذه القوانين التى وضعوها لتنظيم دولهم والتزام العمل بها . ولم تسقط هذه الامم عن عرش عظمتها الا حين استخفت بتلك القوانين وتنكبت سننها

وهؤلاء الرومانيون ما دالت دولتهم . وأفل نجمهم . الا بعد أن عدا « أوغسطوس قيصر » على قوانين المملكة . وعبث بحكومتها فحولها من هيئتها الدستورية الى مطلقة استبدادية واستأثر هو بالحكم والسلطة

ولا نبالغ اذا قلنا أن أمم الغرب لهذا العهد لم يبلغوا مبلغهم من العز والصولة الا بعد أن حذوا حذو تلك الامم في تأسيس أصول حكوماتهم . وطريقة انتخاب رؤسائهم . ومن بواعث العجب أن يقتبس رجال الكنيسة أيضا هذه الطريقة أو ما يقرب منها في انتخاب البابا وأعضاء الفاتيكان بل في اعتبار القديس قديسا . ومنذ أشهر قرر المجمع البابوى وضع (جان دارك) في مصاف القديسين وهى التي حرمها اكليروس زمانها وحكم عليها بالاحراق

كنت أقرأ هذا وأمثاله في التاريخ فينتقل ذهني بحكم الضرورة الى المقارنة بين نوع الحكومة في الاسلام ونوعها عند أولئك الاقوام . وتصور ما حاق بالمسلمين بسبب الخلافة ونزاع المرشحين عليها من البلاء . وكيف كان شيطان العصبية يحتنكهم ويفرق بينهم

لم يقرر الاسلام ترتيبا يتبعه المسلمون في انتخاب رئيس لهم ولم يضع طريقة أو قاعدة يرجع اليها في اختياره . وانما كان الاخلاص في الدين . وتوخي المصلحة العامة . والزهد في زهرة الدنيا . هو قاعدتهم البسيطة

المقدسة في انتخاب رؤسائهم الأولين . ورائدهم في الظفر بالكف ذي القوة المتين . ثم استدار الفلك . وتبرجت الدنيا . ومالت النفوس لأخذ حظها من النعيم . وشابت القلوب شوائب من الانصراف عن فهم مقاصد الدين . فنسخت قاعدة « الاخلاص » ومراعاة المصلحة العامة التي كان العمل عليها في الانتخاب والمبايعة وقام مقامها قانون « العصبية » والمصلحة الخاصة . فكانت كلمته النافذة وقوله الفصل في الترجيح والاختيار

لكن لماذا لما نسخت قاعدة « الاخلاص » خلفها قانون « العصبية » ولم يخلفها « النظام الدستوري » أعني طريقة الانتخاب التي كان يعرفها أمم اليونان وآسيا الصغرى وتحداها الرومانيون ؟

لماذا عقل العرب عن اتباع تلك الاصول وتناولوا قانون « العصبية » عن كثب ؟

اذا تعذر عليهم العمل بقاعدة « الاخلاص » أفما كان المنتظر منهم أن يقطعوا على شيطان « العصبية » خط الرجعة فلا يمكنوه من العودة الى ربوعهم وافساد ذات بينهم بعد أن أصلحها الاسلام وامتن عليهم بها القرآن ؟ كانت هذه الفكرة تجول في نفسي فأستعيذ بالله خشية أن تكون من الزيغ في الدين أو همزة من همزات الشياطين

ليس من السهل القول بان حكومات العرب كانت ولا تزال مرتبكة مضطربة وان حكومة الوثنيين كانت أشد إحكاما . وأوفى نظاما . وأن أولئك لو اقتبسوا من هؤلاء طريقهم في تنظيم الحكومة وتشكيل الدولة كان خيراً لهم وأضبط لامرهم

ليس من السهل عليك أن تصرح بهذا . ولست تعدم من يرد قولك

ويلومك عليه . ومن لا ينك من هؤلاء اللوام اعتذر عن العرب واضطراب أمر حكوماتهم بأنهم قوم حديثو عهد ببداوة ومعيشة الاستقلال الفردي فيصعب عليهم تقليد الامم التي سبقتهم في حلبة العمران وفي انتحال قوانين الاجتماع وأصول ترتيب الحكومة . على أن هذه الامم لم تهتد الى تلك الاصول الا بعد طول تجارب وكرور أجيال ومكابدة أهوال . فكيف يتسنى للعرب وعمرانهم بعدُ في طور الطفولة أن يقلدوا مظاهر العمران الذي بلغ أشده واستكمل سنه خاصةً والعرب لم يمر عليهم زمن يتيسر لهم فيه أن يمتزجوا بتلك الامم ويقتبسوا منها ترتيب حكوماتها وأساليبها في نظاماتها وبالجملة فان العرب في أول نشأتهم لم تتوفر لديهم وسائل الاقتباس ولم تساعدهم عليه طبيعة عمرانهم . فكيف ننعى عليهم التفريط فيه ؟؟

هذا قول اللائم الملاين . أما ذاك المخاشن فينكر أن تكون الامم القديمة ذات قوانين حسنة وأصول مفيدة في تأسيس الحكومة وتنظيم الدولة . ويذهب الى أن ما كان عند العرب في أول أدوار حياتهم الاجتماعية من التعاليم ووسائل السعادة خير مما عند تلك الحكومات الوثنية . فلم يكن العرب في حاجة الى تقليد هذه الامم ولا إلى اقتباس شيء من الترتيب الذي كانوا يتخذونه في انشاء حكوماتهم ووضع قواعد دولهم . ولو فعل العرب ذلك لكانوا مارقين من الدين . ومستخفين بما أنزل عليهم من هدى القرآن المبين

ونقول أولا أن تخطئتنا لبعض أسلافنا في عدم ضبط أمر الرياسة العامة واتخاذ وسائل كافلة بانتخاب أهل الكفاءة لها — ليس بدعا في الدين ولا مساً بكرامة أولئك السلف الصالحين . هذه أسفار التاريخ بل كتب السنة تلومهم على انقسامهم . وأحياء العصبية بينهم . فكان في ذلك داع

لانتكاث فتلهم وذهاب ريحهم

على أننا لا نريد أن نقول أن الواجب على أسلافنا أن يقلدوا الامم السابقة فيما لا يجوزه الدين من طقوس كهنوتية وشعائر دينية . بل كنا نتمنى لهم اقتباس ترتيب الحكومة وتنظيم الدولة وهو أمر دنيوي محض على ما سيجيء بيانه بعد . فكما كان سلفنا ينسبون الى الكسروية العدل وضربوا بعدل كسرى المثل حتي ورد أن النبي صلي الله عليه وسلم قال « ولدت فى زمن الملك العادل » يعني كسرى — يجوز لنا نحن اليوم أن ننسب الى الامم الاخرى سبقا فى وضع قواعد مفيدة فى تنظيم الحكومات . ونقول أن هذه القواعد اساس العمران كما قالوا هم العدل أساس الملك وأن علينا أن نحكم الاساسين ونتنفع بكلا الامرين

أما القول بانه لم يكن عند الامم القديمة أو ضاع محكمة فى تنظيم الدولة ولا روابط ملتزمة في تأسيس الحكومة فمردود والتاريخ ينكره أشد انكار وقد ذكر المؤرخون أنه بعد تأسيس روما بمائتي سنة طغى ملوكها وأمعنوا فى الظلم والاستبداد فاتحدت كلمة الشعب الروماني على اسقاطهم والادالة منهم بالحكومة الجمهورية . فانتخبوا لرياستها اثنين منهم سموهما قنصلين وفوضوا اليهما حق إدارة المملكة . وجعلوا انتخابهما لسنة واحدة . وبعد السنة يكون للامة الخيار فى ابقائهما إذا أحسنا أو عزلهما اذا أساءا . ثم تعاهدوا على حماية هذا القانون وقهر كل من أراد التعرض له بسوء أليس هذا العمل من قبيل السنن الحسنة ؟ الا يكون سداً منيعا فى وجه مجي الاستبداد ويحول بين العير والنزوان ؟

نعم قد يعرض لهذا السد أحياناً من آفات الاجتماع ما يزعزع أساسه ويضعف الاذرع التي تدعمه . ويفتح فيه ثغرة يثب الطامع منها الى الاستبداد بالامر كما فعل اغسطوس قيصر . لكن ذلك لا يشين الاصول الدستورية

ولا ينفى عنها صفة الحسن والصلاحية لاسعاد الامة مادامت هذه الامة فى قوة من شأنها ولم يفسد الترف أخلاق أبنائها فتتخاذل عن حماية دستورها وقهر الصائل عليها

هذا كتاب الله . وهو القانون السماوى الذى انتهى اليه التأثير في اصلاح حال البشر واسعادهم . انحرف قومه عنه فانحرفت عنهم السعادة . وهجروا العمل به فهجرتهم العزة والسيادة

نحن لا ندعي أن عقول الرومانيين الذين هدوا الى مبادىء الدستور قد بلغت من الحصافة والسداد مبلغا تسجد على أبوابه العقول . ولا أن هيئة اجتماعهم بلغت أقصى ما يتمناه الفلاسفة للجماعات البشرية . كيف لا وتلك العقول قد ارتكبت بعد وضع تلك المبادىء جريمة يستعيذ من ذكرها التاريخ فقد نقم فتيان من الرومانيين على حكومتهم المذكورة وتواطأوا على اسقاطها واذ أرادوا أن يستوثقوا من أنفسهم ويؤكدوا العهد بينهم ذبحوا رجلا وشربوا من دمه . وأقسموا على الصبر والثبات ! ! نحن لا ندعي ذلك وانما نرى أن الشعب يحكومته . وأن صلاحه بصلاحها . وأن الحكومة لا تصلح مالم يتولها قوم صالحون . ولا يتولاها الصالحون مالم تكن ثمة طريقة ثابتة مكفولة لانتخابهم . فاذا اهتدت أمة من الامم الى هذه الطريقة المكفولة كانت مستوثقة من متانة الاساس الذى ترفع عليه قواعد مملكتها . فتتفرغ بعد ذلك لتنظيم شؤون المملكة وتدبير وسائل عمرانها ومرافق حياتها

وما كانت الامم القديمة تهتدى الى تلك المبادىء الدستورية مرة حتى تفقدها مراراً . فكانت مذبذبة مقلقلة كقدح الراكب . حتى أذن الله بانحلالها وانقراضها . أما الامم الافرنكية لهذا العهد فقد تناولوا هذه

المبادى ، عن كثب وجعلوها أساساً لعمرانهم الحديث . ثم أعدوا ما استطاعوا من الوسائل لصيانتها وثباتها ومن هذه الوسائل البخار والكهرباء وسائر الاختراعات التي تحفظ ذلك العمران من عين الزمان . وتقلب الحدثان . ولا يعلم الا الله متى يكون انقراضه . وبأى الادواء يكون موته وانحلاله . ولو أن العرب فطنوا من أول أمرهم لتلك الاصول المجربة في تنظيم الحكومة كما فطنوا الكثير غيرها من الشؤون الدنيوية مما نبههم الي اباحة اقتباسه دينهم الطاهر ثم أضافوا كل ذلك الى ما آتاهم الله من كتاب وحكمة وعدل - لو فعلوا ذلك لبلغوا من سموّ الشأن . ودوام العمران . ما بلغته أمم أوربا في هذا الزمان . وتكهن به لمسلمي الاندلس الفيلسوف « رنان »

واذا اعترض علينا معترض بأن الدين الاسلامي قد انتهى اليه الكمال وهو لم يدع مصلحة من مصالح البشر ولا حاجة من حاجاتهم الا هدي اليها وحث عليها . وان القول بأن المسلمين في عصورهم الاولى غفلوا عن اقتباس ما فيه خير لهم من الامم قبلهم مما لم ينص عليه دينهم قول مردود . ورأى غير محمود . اذا اعترض علينا معترض بمثل هذا كان لنا أن نقول في الجواب . ان الدين الاسلامي أرشدنا الي تعاليم تتعلق بالآخرة وتعاليم تتعلق بهذه الحياة الدنيا . أما التعاليم الاولى كالعقائد والعبادات ومداناها فهذه هي التي انتهي اليها الكمال بحيث لا يتصور فيها تبديل أو تغيير أو زيادة أو نقصان . ولا تنسخ ولا يقاس عليها ولا يستنبط منها ولا يجتهد فيها ولا يجوز بحال من الاحوال العدول عنها الى غيرها أو اختراع شيء ينوب منابها . وقد استوفي الدين الاسلامي الكلام عليها اصولا وفروعا . وكليات وجزئيات . فالواجب علينا معشر المسلمين أن نقف عند هذه الحدود الدينية وقفة عواجز

ولا نحيد عنها قيد أصبع . وهذا الكمال الديني هو ما عناه الله تعالى في قوله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » وقوله تعالى « مافرطنا في الكتاب من شيء » أي من أمور الدين عقائد وعبادات وشعائر . وقوله صلى الله عليه وسلم « من أحدث في ديننا هذا ماليس منه فهو رد » أي هو مردود عليه ومراده بالدين العقائد والعبادات وما اتصل بها

أما شأن الدين الاسلامي بالنسبة للتعاليم الاخرى المتعلقة بالدنيا فليس كذلك . فهو انما نص فيها على بعض أحكام جزئية ثم استوفى ذكر القواعد الكلية والاصول العامة . وأمرنا أن نرجع اليها في شؤوننا الدنيوية لاجل الاستنباط منها اذا لم نجد الحكم الذى نريده بين جزئيات الاحكام المنصوصة وبهذه الصورة فتح لنا باب الاجتهاد وأحالنا على القياس لحين اللزوم وأشار الى أن لاختلاف الزمان والمكان والعرف والمصلحة - لكل ذلك تأثيراً عظيما في أمر التشريع وتقرير جزئيات الاحكام

فلا يكون من المروق أو الالحاد اذن أن نقول ان المسلمين في الصدر الاول بلغوا الكمال المطلق من حيث العقائد والعبادات وأخواتها . أما في سوى ذلك من أمور الدنيا فقد بلغوا الكمال في قواعدها الكلية لا في مسائلها الجزئية . فانهم في هذه الجزئيات لم يبلغوا الكمال المطلق وانما ينقصهم منها أشياء حثهم الشارع على تحصيلها وتوفيرها والبحث عنها في مظانها واقتباسها من دون اثم ولا حرج

حثهم الشارع على تطلب ذلك الكمال بسننه القولية والعملية فقال لهم « الحكمة ضالة المؤمن التقطها أينما وجدها » وأشار عليه سلمان الفارسي أن يتخذ حول المدينة خندقا لصد الاعداء كما يفعل الفرس ففعل وباشر العمل

بذاته الشريفة وأخبره تميم الداري أن نصاري بيت المقدس يتخذون لمابدهم مصابيح فأمره أن يتخذ للمسجد النبوي مثلها. فتنوير المساجد مما ينقصنا في كمالنا الدنيوي . وقد أرشدنا الشارع اليه بسنته العملية . ولم يمنعنا منه علاقته بالكنائس التي هي بؤرة الدين الذي نرفضه ونتعبد بضده . ومن الاعمال الدنيوية التى قلد بها النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب الملل الاخرى مسألةً صحية طبية . ذلك انه قال (هممت أن أنهى أمتى عن الغيلة حتى علمت أن فارس والروم تفعل ذلك بأولادها فلا تضير أولادها) والغيلة (بالغين المعجمة) أن ترضع الام طفلها وهى حامل . ومن أعجب العجب في تحرى المصلحة والخير المطلق أن يبيح لنا الشارع تعدد الزوجات ثم يستحسن لنا أن نفعل ما تفعله النصارى فنقتصر منهن على زوجة واحدة . لان في هـذا الاقتصار خيراً لنا وسلامة في ديننا ودنيانا بل بلغ صلى الله عليه وسلم فى التصريح الى أبعد من هذا فقال (أنتم أعلم بأمور دنياكم)

فالقول بانه كان ينقصنا أن نعمل كذا وقد قصرنا فى اقتباس كذا من أمور الدنيا لا يضير الدين ولا يخرجنا من عداد المؤمنين

أما عصر الخلفاء فقد ظهرت حاجة المسلمين فيه الى كثير من الكمالات الدنيوية بأشد مما ظهرت فى عصر النبوة . وذلك بالنظر لاختلاطهم بالامم غيرهم وتعدد حاجاتهم وتحول هيئة اجتماعهم الى شكل جديد

فقد قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم بوضع التاريخ وتدوين الدواوين وحذا حذوه الخلفاء بعده . لا سيما معاوية حتي زمن العباسيين فهناك توفرت وسائل الاقتباس في العلوم والفنون والصناعات وسائر مرافق الحياة ومقومات العمران

وكان الصحابة والتابعون وكبار الائمة يرون هذا ولا ينكرونه . لانهم يعلمون أن الدنيا كل يوم في شان . ويسوغ للمسلمين أن يتناولوا مما يستجد فيها ما يفيدهم في دنياهم ولا يضرهم في أخراهم

وعمل الخلفاء والسلف على هذا الوجه بمنزلة قولهم إننا معشر المسلمين لم نبلغ الكمال في أمور الدنيا بل ينقصنا أمور كثيرة يحسن بنا أن نقتبسها من غيرنا ونتنفع بها . أما ما كان من جوهر الدين عقائد وعبادات فحاشاهم أن يقلدوا فيه سواهم أو يروا قرآنهم وسنة نبيهم مقصرين عن هدايتهم فيه

واذ قد وصلنا الى هنا فالقارئ لابد أن ينصف ويقول : حقا انه كان ينقص المسلمين في عصورهم الاولي أن يتخذوا الانتخاب ولاة أمورهم وتنظيم دولهم طريقة ثابتة يؤيدونها بقوائم سيوفهم ويكفلون دوامها ولو بمصافحة حتوفهم . وقد فعل عمر رضى الله عنه فعلا أصبح به على قاب قوسين أو أدني من هذه النظامات الدستورية فهل تفطن لها بفطرته الزكية يا ترى أم قد نبهه اليها منبه عارف بشؤون الامم القديمة كما نبهه الى تدوين الدواوين ؟

ذلك انه رضى الله عنه لم يعهد بولاية الامر بعده الى أحد من بيته وانما تركها شوري لستة نفر من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار عليهم أن يقترعوا أو يأتمروا بينهم وينتخبوا للخلافة من يكسب أكثرية الاصوات وأن تساوى الفريقان فالرجحان يكون فى الجانب الذى فيه عبد الرحمن بن عوف . فياليت هذه الطريقة التى أشار بها عمر في انتخاب الخليفة جعلت تقليداً أو سنة يدوم العمل بها ثم يتوسع فيها بانتخاب نفر من أهل الحل والعقد يساعدون الخليفة في ادارة الرأي وسياسة أمر الامة . ولو فعل

المسلمون هذا في عصورهم الاولى لما كانوا الا عاملين باصول دينهم . ومقاصد شريعتهم . ومن مواضع العجب أن لا يحصل التفطن لهذه الطرائق الانتخابية في زمن بني العباس . فان هؤلاء الخلفاء وقفوا على كثير من أسرار المدنيات القديمة لاسيما مدنية اليونان . وترجموا طائفة كبيرة من كتب العلم والفلسفة والطب والصناعة . فكيف لم يترجموا شيئاً من كتب الادارة والسياسة وفنون الاجتماع ويجروا عليه في تأسيس دولهم ويتحدوها في اصلاح ممالكهم ؟؟

ولكن لو فعلوا أترى هرون الرشيد كان يتمكن من قتل البرامكة على الصورة التي قتلهم بها من دون محاكمة ولا سؤال ولا استفهام ولا مشورة أهل رأي الا انه أراد فقعل ! كما فعل قبله معاوية بن أبي سفيان مذ قتل حجر ابن عدي وأصحابه ظلما وعدواناً ؟

وكان الجدير بالتفطن لهذه الاصطلاحات الادارية المفيدة الخليفة المأمون ذلك الخليفة النشيط الذي نقل العلوم القديمة من كتب الاوائل والذي حمله حب الحق على التنازل عن الخلافة للعلويين وكاد يتم الامر لهم لولا اعتصاب العباسيين وخروجهم عليه

ولعل أولئك الخلفاء وقفوا على تلك الاصطلاحات الانتخابية لكنهم كتموا أمرها وهالوا التراب عليها وذلك احتفاظا بالاستبداد الذي ذاقوا لذاته فخافوا ان ينتبه المسلمون ويناقشوهم الحساب فيقيدوا سلطتهم ويخضدوا شوكتهم . ويكون شأنهم في ذلك شأن الامم المتغلبة لهذا العهد مع الشعوب المغلوبة لها مثل انكلترا في الهند . وفرنسا في الجزائر وتونس . وروسيا في قازان وتركستان وهولاندة في جاوه فان كل هذه الدول تحول بين تلك

الشعوب وبين التربية الصحيحة التي تفتح القلوب وتنصف المغلوب وتسترد الحق المسلوب

ومحصل القول ان الاصول الدستورية التي تؤسس عليها الحكومات النيابية مما غفل عنه المسلمون في عصورهم الاولى بعد أن تنبه له عمر رضي الله عنه فيما أمر به من الشوري . وهذه الاصول ليست من جوهر الدين فيقال أن عدم تصريح الشارع بها نقص في الدين الذي أتي به . بل هي من الشؤون الدنيوية التي لا يمكن الدين أن يستوفيها بيانا وتفصيلا وانما يتركها لينتبه لها المسلمون في أدوار حياتهم حالا فحالا . وليقتبسوا منها ما يحتاجون اليه جيلا فجيلا

وها هم اليوم بحمد الله قد انتبهوا اليها وسعدوا بالحصول عليها

المغربي

الفلسفة والتاريخ

(١)

حياة روسو

يصعب على الكاتب أن يسطر عن روسو شيئاً وهو موقف أنه قد صدق فيما وصف وأبان فى تصويره لذلك الانسان الغريب الاطوار مع ما كان له من الفضل المشهور والادب الرائع

والذي يقرأ ما سطره هو عن نفسه فى كتابه بل كتبه التي سماها بالاعترافات لا يداخله الشك فيما نرى

فلقد عمد الرجل بشجاعة نادرة الى قيد حسناته وسيئاته وخيره وشره على السواء قيداً تجمد له العين استنكاراً ثم تغضي له الجفون اكباراً

بل انه ليهن لي أن الرجل قد أخفى عن الناس كثيراً من كبائره وعزا لنفسه أموراً لم يجترمها وبالغ في استنكار ما يعتقد هو ويعتقد غيره أيضا انه ليس من الشرور فى شيء

ولد روسو فى مدينة جنيف بسويسر فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيه سنة ١٧١٢ من أب كانت مهنته صناعة الساعات وهو من سلالة عائلة فرنسية هاجرت الى جنيف فرارا مما كان يصب على رؤوس البروتستانت يومئذ من عسف القسوس واضهاد اخوانهم الكاثوليك

اما أمه فكانت ابنة أحد قساوسة المدينة. وكان آخر عهدها بالحياة يوم وضعت لفرنسا رجلها وفخرها

وأسلمت روسو للحسرات وجعلته وقفا على البؤس. كذلك قضي روسو طفولته نهبة للامراض ضعيفا دائم الانين كثير البكاء

فلما ترعرع واشتد تسلمه أبوه وكان هذا مولعا بقراءة الكتب شديد الرغبة فى أن يكون ولده كذلك فكان كما اشتهي حتي أنهما كانا يسلخان نصف الليل فى مطالعة الروايات

بلغ روسو من العمر عشر سنوات كانت خاتمة اجتماعه بابيه. وسبب ذلك أن والده خرج ذات ليلة فصادف ضابطا من رجال الجنديه الفرنسية وجرى بينهما حديث أدي الى الشجار فلما أحس الوالد انه معاقب لامحالة وكان كابنه أبيا يكبر أن يحتمل عقابا مهما كان بسيطاً فر هاربا من وجه القانون وترك ولده للقضاء والقدر. ولكن روسو ذهب الى عمته وعاش معها حتى حين

فلما بلغ الحادية عشرة من العمر بدأ في مكافحة الايام ومغالبة الدهر وكذلك زج بنفسه في خدمة رجل من مقيدى الدعاوى الشرعية وكأنما زج بنفسه في الشقاء فانه لم يلبث ان أحس بما هو فيه من المهانة والصغار حتى خلى عمله هذا ورافق حفارا بغية تعلم صناعة الحفر والخروج من أسر وظيفته الاولى ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار فأن معلمه الحفار كان فظاً غليظ القلب كثير الاذي يضربه الضرب المبرّح ويذيقه مر العذاب بسبب وبغير سبب وهو صابر علي بلواه كأنه قد ألف الشقاء فلم يكن له اذ تنوعت بواعثه وتعددت مظاهره فيه من تأثير. لذلك لم يكن ينشط للدفاع عن نفسه أمام معلمه بشيء مما يؤثر عنه أو يحاجه فيما ينزل به بل كثيرا ما كان يعتمد على الكذب في النجاة ويجعل المكر سبيلا للتخلص من صفع الاكف وضرب

العصى ولكنه مع كل هذا لم يعدم الاختلاء بنفسه وتنمية مواهبه فقد كان يخرج كل يوم من أيام الآحاد للتفسح خارج المدينة واستمر على ذلك برهة من الزمان مكنت منه عادته حتى كان اذا خرج فى القري ذهل عن ذاته بين الحقول والمروج لشدة التهائه بجمالها واشتغاله بافكاره وتأملاته

وحدث انه فى سنة ١٧٢٨ ذهب كعادته فى القرى حتى غشيه الليل فاراد العودة فتاه فى سبيله ثم اهتدى بعد لأى ولكنه وجد أبواب المدينة مقفلة فى وجهه ولا سبيل له الى الدخول . وتمثلت له فظاظة معلمه وعصاه فاقشعر بدنه وآثر أن يلاقي وجه المصايب على ملاقاة وجه معلمه مكفهراً تبدو الحفيظة فى أديمه . فاستظهر المدينة وسار في طريقه على غير هدي حتي أتاح الله له رجلا من قساوسة المدينة صحبه قليلا فعرف منه شكايته وغايته فآساه ثم أخذه معه الى منزله رغبة منه فى تنفيره من مذهب البروتستانت مذهب والده وتحبيبه الى الكاثوليكية دين ذلك القس وسرعان ما أصبح روسو عريقاً في مذهب كنيسة روما

وبعد ذلك بقليل أخذه القس الى امرأة من ذوات الثراء تدعي مدام دوران وكانت جميلة نشيطة ولكنها غريبة فى طباعها فانها (كما وصفها روسو فى اعترافاته) امرأة كانت على رقيها وسمو معارفها لا تعرف للفضيلة معنى فهي تنزل الى خسائس الامور بلا حياء ولا خشية

كان من أمر هذه المرأة أن شملت روسو بعنايتها وتولت هي بذاتها تمكين مذهب الكاثوليكية فى قلبه حتى اعتنقه روسو بصفة رسمية

ثم أمضي روسو عندها ردحا من الزمان رأى في الابتعاد عنها فضلا فهاجر عنها في سبيل الحياة لا يملك فى يديه الا عشرين فرنكا حتى ألقى

عصاه عند احدى الكونتسات خادمامن خدامها بل سائسا لخيول مركباتها بقدر معلوم

ومما يذكره روسو بالاسف الشديد فى اعترافاته جرم اقترفه وسفالة أبداها . ذلك انه سرق من قصر سيدته بعض أشرطة من الحرير قدمها هدية الى أحدى رفقائه الخادمات في المنزل فجعلتها على ثيابها فلما افتقدت الكونتس أشرطتها اتهمت بها الخادمة وآخذتها على ذلك . ولكن الفتاة آثرت أن تحتمل عقاب السرقة عن السارق نفسه وقد طردت من المنزل وروسو مشاهد هذه المناظر وكأنما رضى أن يجني هو ويعذب غيره عذاباً . أما هذه الفتاة فيقول انه لم يرها منذ ذلك العهد على انه كان كلما تذكرها أسف أسفاً شديداً

ومن ثم أخذ روسو فى التنقل من مهنة لاخرى حتى اذا ضاقت في وجهه الدنيا عاد الى مدام دوران فسألها المعونة . وكان مغرما بالموسيقي فقالت له كيف ترى فى أن تتعلم فنون الموسيقي ؟ قال انها لبركة فجعلته رفيقاً لاكبر رجال الاوركسترا فى بلدة نانسي التى كانت مدام دوران وقتئذ فيها فتاكا ونحابا وقد وجد كل من صاحبه الميل والعطف فتصادقا وكان الرجل يومئذ رئيس الاركسترا التي كانت تعزف في الكنيسة فحدث ذات يوم أن اختلف مسيو لوميتر الموسيقى مع رؤساء الكنيسة فى أمر ما وأصر على رأيه وأصروا فاضطر الى مغادرة الكنيسة الى حيث يجد مرتزقاً آخره فصحبه روسو وفيما هما فى الطريق الى مدينة ليون أصيب مسيو لوميتر بتشنج ألقاه على الارض صريعاً . فلم يكن من روسو ذلك الانسان الغريب الاطوار الا أن ترك معلمه ورفيقه على هذه الحالة فى الطريق وأخذ

هو في سبيله كأنما لا يعرف الرجل ولا يحق عليه في عرف الانسانية أن يرحمه ولو بنظرة اشفاق

ثم ذهب ذلك العهد فعاد الى مدام دوران ولكنه لم يوفق في تلك المرة اذ رأى أن المكانة التي كانت له في قلب تلك السيدة تبوأها غيره فخابت آماله ويمم باريس ليلتمس العيش فيها وكان كل رأس ماله يومئذ بعض مسطورات موسيقية ألفها هو على طريقة جديدة ولكنها على كل حال لم تصادف من أهل باريس قبولا

بيد أنه كان في هذه الاثناء قد تعرف الى كثير من ذوي المكانة والسلطة في باريس فسعوا له حتى عين سكرتيراً لسفير فرنسا في مدينة جنيف غير أنه لم يمكث بها كثيراً بل عاد الى باريس مرة أخرى

كان روسو قبيل زواجه يقطن خانا حقيراً في باريس وكان من بين خدمه فتاة تدعى تريس لوفاسور على جانب عظيم من الغباوة والاعتباط ولكن روسو كان يعتقد أنها ذات قلب نقي وسريرة طاهرة فتزوج بها وعاشا معاً في صفاء يعاملها كما يعامل أذكى النساء . على أن المأثور عنها أنها كانت لا تستطيع معرفة الوقت من الساعة ولا تعرف كم يبقى لها من الصولديات اذا ابتاعت شيئا باثنين مثلا ودفعت للبائع فرنكا واحدا!!

وقد اختلف الناس في الحكم على تريس ففريق لا يقر روسو على حسن اعتقاده فيها وفريق يقره

على أنه مهما يكن من الامر فان هذا الاقتران العجيب اقتران فتاة على ما علم الناس من البله برجل كروسو قد أدى به الى اجترام أمور كبيرة هي حتى يومنا هذا موضوع البحث بين من يعنون بتاريخ حياة هذا النابغة . وقد ولدت

تريس خمسة أولاد ولكن كان شأن الزوجين أنهما كلما رزقا بمولود أرسلاه الى دار اللقطاء ليرعاه هناك أهل تلك الدار على ما هو معروف من مقدار ما يصيب الاطفال هناك من قلة العطف وفقد المرحمة

جناية لعمرك فظيعة لا تكفير لها مهما كانت الاعذار وأي عذر لاب أو أم في الرمي بالاطفال الى مثل دار اللقطاء إلا إذا كان لدى أحدهما ما يحمله على الاعتقاد بانهم في حكمهم . بيد أن روسو قد أتى على ذكر هذه الحوادث في اعترافاته بالاسف الشديد والندم والحسرة

أما هؤلاء الاولاد فقد بذل الكثير من الناس جهدهم للاهتداء اليهم وذلك في حياة روسو أيام أصبح ذا صيت واسع بين بني قومه ولكنهم لم يستطيعوا أن يعرفوه من بين جمهور اللقطاء في تلك الدار يومئذ لما أنهم لم تكن لهم أمارات خاصة أو علامات بل ولم تكن على ثيابهم الاولى اشارات ولا كان روسو نفسه يحفظ تواريخ أرسالهم الى تلك الدار كأنه كان يتعمد أن لا يقف لهم أحد على أثر

غير اني أترك الحكم في هذا لغيري فربما كان الرجل معذوراً

جاء عام ١٧٤٩ فاذا روسو ذلك الرجل الذي كان ينسخ نوتات الموسيقى قد بعث بين قومه مشهوراً . وقصة ذلك انه كان من بين رفقائه ذوي المكانة العالية في الامة الكاتب ديدرو الطائر الصيت فذهب يوما من الايام روسو لزيارته وكان يسكن على غير مقربة منه وفيما هو في الطريق فكر في تمضية مسافته بالقراءة فاشترى نسخة من جريدة تدعى Mercure de France مركور دي فرانس وكان بهذه الجريدة اعلان من قبل الجمعية العلمية بديفون عن جائزة تمنح لصاحب أجود مقالة تكتب

في موضوع قررته هذه الاكاديمية وهو .

«هل كان من أمر العلوم (الطبيعية) والفنون انها ساعدت على تهذيب الاخلاقيات أم لا »

وأدلى روسو دلوه بين الدلاء ففاز بالجائزة مشكوراً وفاز بصيت كبير وقد كان رأيه في ذلك الموضوع أن العلوم لم تساعد على الآداب بل على ابعاد العالم عن الفطرة . فلما ظهرت المقالة وقرأها كل ذى لب أكبره اكباراً وبذلك أصبح روسو عظيما في عين أمة الفرنسيس

ولما كان شأنه في عيشته على ما علمنا نسخ النوتات وبيعها فقد عرضت عليه أعمال تدر الخير ولكنه أباها متلمسا رزقه من الموسيقى ... على انه مرض بعد ذلك مرضاً كان كأنه جاء يعتذر عنه فى رفضه تلك الايادي . مرضا امتلك عليه مشاعره حتى ظن أنه لا يعيش بعده طويلا وانه ينبغي له أن يعيش هو وتريس على النزر اليسير الذى يستطيع تحصيله من نسخ نوتات الموسيقي غير انه في تلك الاثناء كان قد ألف أوبراً سماها Devin du Village وذلك سنة ١٧٥٢ تلقاها الباريسيون بالاقبال والاجلال حتى أن ملك فرنسا يومئذ لويس الخامس عشر لم يكن أقل اعجابا بهذه الرواية من رعيته بل انه أظهر استحسانه لها علنا ولو أراد روسو يومئذ أن يتنزل بين يديه لنال هذه الحظوة ونال فيها معاشا كاملا أسوة بغيره من ذوي المكانة الادبية ولكنه لم يرد

وفى سنة ١٧٥٤ عرضت الاكاديمية الكبرى جائزة لافضل مقالة تكتب فى موضوع أصل عدم التساوي بين الناس أهو مما تؤيده القوانين الطبيعة ام لا ؟ فكتب روسو فى هذا الصدد كتابة لم تفضلها كتابة قبلها بل كانت من

الحماسة بحيث لم يستطع المحكمون ان يمنحوه الجائزة من أجل هذا لا يؤاخذهم ذوو السلطة على فعلهم وفى هذه السنة أيضا سافر روسو لزيارة مسقط رأسه وهناك اطرح الكاثوليكية ورجع الى ملة أبيه البروتستانتية اما ما صادفه من اكرام أهل بلدته له فعظيم جدا ومما يروي أن النساء والرجال والاطفال على السواء قد اشتركوا فى اقامة حفلات التكريم لنابغة جنيف

هناك فى جنيف عرضت عليه وظيفة رئيس مكتبة المدينة وهي مرتبة عظيمة ولكنه رفضها وعاد الى باريس يتلمس مسكنا يوافق ميوله ومشاربه أما هو فكان من الهيام بالمناظر الطبيعة والخلاء بحيث لم يكن يهنأ له بال فى المدينة ولكنه كان قد جمع حوله رفقاء عززا عليه كان حبه لعشرتهم يجبره على البقاء وكذلك كان فى حيرة من امره حتى ازال غمته وفرج كربته سيدة من طبقة الكبراء تدعى مدام ديبيني عرضت عليه منزلا قرويا بالقرب من مونتومورنسي فتقبله بالشكر وقطن به وأطلق عليه اسم هرمتاج أى الصومعة

يتلى — ابراهيم رمزي

علم النفس

مقدمة — الخاطر أو البال — تعاريف علم النفس — دراسة عقول الاطفال — معنى العقل — العلاقة بين الجسم والعقل — حالات العقل — علائق هذه الحالات بعضها ببعض — الشعور والمعرفة والادارة — الانتباه والتمييز والتشبيه — النمو والنشوء —

١ علم النفس هو العلم الذي يبحث في كل المظاهر والحركات العقلية ويمكننا أن نقول إنه هو ما نعرفه عن العقل مصوغاً في قالب علمي صحيح سمعنا « بالفسيولوجيا » وعرفنا أنه « علم » وكذلك سمعنا بأنه يبحث في وظائف الاعضاء على اختلافها ثم وقفنا بالملاحظات السطحية على شيء من المعلومات البسيطة عن جسم الانسان كدقات القلب ووصول الهواء الى الرئتين بعد استنشاقه وغير ذلك كل هذه معارف عامة ولكنها مشوبة بالغلطات الجمة

ثم ان هذه المعارف العمومية قاصرة جداً لانها قشور سطحية من العلم لا تروي الغلة ولا تشفي العلة

يعلم الواحد منا ان الهواء الذي نستنشقه يصل الى الرئيتين ثم تقف معلوماته عند هذا الحد كأن لاضرورة للتوسع فيها الا إذا كان الانسان طبيباً

من أجل ذلك كانت الحاجة ماسة الى (١) اصلاح الخطأ الشائن في معارفنا العمومية (٢) وتوسيع نطاقها . حتى اذا ما تم ذلك وصارت مرتبة مضبوطة محكومة مرسومة سميت « علما »

كلنا نعلم أن في الانسان سراً به يشعر ويعلم ويفكر يسمى « عقلا » ولقد وجد أن في استطاعة الانسان دراسة ذلك العقل كما استطاع دراسة الجسم من قبل . ذلك بأن يبدأ بما هو مألوف متعارف عن العقل فيفحصه ويصلحه ويوسعه ويرتبه فيصل في النهاية الى « علم » يبحث في العقل ويسمى « بسيكولوجي » أو « علم النفس »

﴿ الخاطر أو البال ﴾

رأي مرة أحد المعلمين تلميذاً يغش في الامتحان فضبطه ووقفه عن العمل . وما هي الا بضع دقائق حتى اكفهر وجه التلميذ وصار شاحبا . ثم ارسل رأسه على صدره وخر مغشيا عليه منقطع الانفاس . عند ذلك هرع المعلم نحوه ليساعده فوجده لا يسمع ولا يرى . وجده « فاقداً رشده » وكأن عقله قد سكنت حركاته وبطلت وظائفه . فأخرجوه في الهواء الطلق ودلكوه ورشوا الماء على وجهه . وبينما كذلك اذ ارتجف التلميذ فجأة فلاحظوا كأن الحياة تتسرب الى أعضائه الواحد بعد الآخر ففتح عينيه وأخذ يحس شيئاً فشيئاً حتى أدرك موقفه . وأخذ العقل يؤدي وظائفه . أو بعبارة ثاب الى رشده واشتغل « البال » بالهواجس وانتظمت في الخاطر سلاسل الافكار

(فالبال أو الخاطر) بالمعنى المتقدم لا يكون الا بتأدية العقل جميع وظائفه الممكنة

« البال أو الخاطر » هي الكلمة التي نحب أن نطلقها على معنى عام يفيد جميع مظاهر العقل وهي سلسلة من احساسات وأفكار وشعور وارادة وهلم جرا

﴿تعاريف علم النفس﴾

علم النفس هذا من جملة العلوم الطبيعية كالفسيولوجي واليكمياء وغيرهما لان الكيماوى يحلل المركبات الى عناصرها والجراح يشرح الجسم الى أنسجته الدقيقة وكذلك العالم في علم النفس يشرح الامور العقلية ويحللها الى أصولها الاولية عند مادبت في « خاطر » الانسان لاول مرة

﴿علم النفس ضرورى للمعلم﴾

فكما أن الانسان لايكون طبيبا ماهراً الا اذا وقف تمام الوقوف على وظائف الاعضاء كذلك لايكون الانسان معلما ماهراً الا اذا كانت له معرفة حقة ودراية سليمة بوظائف العقل . بمعنى أن علم النفس هو للمعلم بمثابة علم وظائف الاعضاء للطبيب . ولكن لايستلزم ذلك أن كل عالم من علماء النفس أستاذ ماهر ومعلم حاذق لان علم النفس قوانين موضوعة مجموعة والتربية فن لايبرع فيه الانسان الا بالعمل والممارسة . فكما أن الانسان لايمكن أن يكون عواما من مجرد اطلاعه فى الكتب على قوانين السباحة كذلك المعلم لاينبغ من مجرد قراءته الكتب الضخمة في علم النفس . الا أن قوانين التربية مستنبطة جلها من قوانين علم النفس بمعنى أن المعلم اذا ألم بذلك العلم المبنية عليه قوانين مهنته تحاشى كثيراً من الغلطات التى يقع فيها أثناء تجاربه وفضلا عن ذلك فانه يشعر بلذة كبرى فى اداء وظيفته ويفيد تلاميذه أكثر مما لو عمل بقواعد وقوانين لايفهم لها معنى ولا يدرك لها مغزى — واذن فعلم النفس هو منارة المعلم التى يكشف بها غياهب مهنته ويحل بها رموز فنه فيؤدى واجبه بحكمة وسداد

﴿طرق دراسة العقل﴾

ان الانسان يمكنه أن يدرس عقله بنفسه كما يمكنه أن يدرس عقول الناس وعلى ذلك توجد طريقتان هامتان لدراسة العقل . الاولى منهما تسمى الطريقة الداخلية أو الباطنية والثانية تسمى بالطريقة الخارجية أما الطريقة الداخلية وهي طريقة دراسة الانسان لخواطره بنفسه فصعوبتها في أن يجرد الانسان من نفسه شخصا آخر يرقب تلك الافكار والهواجس التى تجول بخاطره فكأنه في الحقيقة يقسم نفسه شطرين أحدهما (مراقب) بالكسر والآخر (مراقب) بالفتح

ومن العقبات في هذا السبيل أيضا عدم الاهتداء الى (وحدة) تقاس بها العقول . فالطبيعي مثلا يرجع فى كل شيء الى الجرام والمتر وهذه كلها وحدات معروفة لدى الطبيعيين عموما . ولكن الانسان اذا قرأ مجلداً فى علم النفس يحكم في ذلك بعقله هو . فاذا ماقرأ هذا المجلد شخص آخر حكم فيه بعقله هو أيضا . ولما كانت العقول متفاوتة متباينة لدرجة انه لايوجد عقلان متشابهان تنوعت الافهام وتعددت النتائج وأشكل الامر . من أجل ذلك ماوجدا اثنان للآن يتفقان في رأيهما حركات العقل بل ان كل واحد يسعى في تبرير علم النفس الذي يفهمه هو ويراه

فكما أن قوس قزح لايمكن أن يراه اثنان بشكل ومنظر واحد . كذلك العقل لايتجلى لاثنين بحالة واحدة . غير أن الافكار اذا تقاربت يمكن الاتفاق مؤقتا على جعلها قاعدة يحسن السير عليها في كثير من الاحوال . وما هو مقرر الآن من قوانين علم النفس انما هو أفكار متقاربة صح أن تكون قواعد

والطريقة الخارجية تنقسم الى قسمين طريقة الملاحظة وطريقة التجربة

ولقد نرى بالملاحظة أنه يبدو على الناس علامات تدل على أطوار عقولهم ومتي لاحظ الانسان مثل هذه العلامات ودرسها في نفسه أولا سهل عليه ان يقرأها فيمن يخالطهم فيعرف مايجول فى خواطرهم ولعمري أن هذه هي الفراسة وبها يدرس الانسان العقول المريضة والمتوهة والقاصرة وبها يتسني للمعلم أن يلاحظ حركات عقول تلاميذه . وهناك واسطة أخرى لدراسة عقول كثير من الناس خصوصاً السالفين منهم وتدخل ضمن هذه الطريقة التي نحن فى صددها وهي أدبيات اللغات وتراجم الحياة وأمثال ذلك

أما طريقة التجربة فهى أحد ضروب الطريقة الخارجية وتقتضي اجراء التجارب في العقل على النمط الذي تجرى به على الجسم فى مباحث علم وظائف الاعضاء ولذلك تستلزم دراسة المجموع العصبي دراسة تامة

﴿معايب الطريقة الخارجية﴾

قلنا انه لايتسنى لنا أن ندرس عقول الناس «مباشرة» بل « الواسطة » في ذلك أن نرقب العلامات التى تبدو على أجسامهم والتي «نظن» أنها من مظاهر أطوار عقولهم فنستنتج من هذه حال عقل كل واحد منهم . وهنا لايمكننا الجزم بان هذه العلائم هي فى الحقيقة ناشئة عن حال العقل التى استنتجناها فكم من ممثل يتظاهر بالفرح وهو محزون الفؤاد ذلك فضلا عن اننا نقيس أطوار عقول الناس ومشاعرهم ومداركهم بما طبعنا عليه نحن فالطيب القلب الطاهر النية يرى كل انسان على شاكلته هو واللئيم الزنيم لايرى في العالم الا خبثا ولؤما وكثيرا مايسوء تأويل فعال الاطفال بهذه الكيفية فنقيس الكبير عقله بعقل الصغير

أن أهم ما تنحصر فيه عناية المعلم هو الطفل قبل كل شيء فيجب عليه أن « يعرف » ما هو لا أن « يخمن » ما هو . هذا مع العلم باننا الآن لم نصل في مباحثنا عن أسرار الطفولة الا الى النصف تقريباً وعلم النفس يبين لنا السبيل للوصول الى عقل الطفل فانه لا يتيسر لنا أبداً أن نعلم الاطفال على الوجه الاصح الا بعد الوقوف على حقائق عقولهم حتى اذا ماوصلنا الى ذلك بقدر ما تساعدنا عليه مداركنا بالجهد الجهيد شرع لنا علم النفس من الطرق الحقة ما نثقف به أذهان التلاميذ

العقبات في دراسة عقول الاطفال

أولا — أن الطفل في بداية حياته لا يقدر على الكلام ولا يقدر أن يدرس عقله بنفسه

ثانياً — أن الطفل قد خلق ممثلا فمتي أحس المراقبة من أحد فعل مالا يفعله لو كان في خلوته . فهو يحب أن يتظاهر بمظهر العاقل ويحب أن يستميل الناس اليه ويحب أن يقلد الكبار في السن . من ذلك نرى أن الباحث اذا لم يكن حاذقا حذرا وجد نفسه يدرس بدل الطفل صورة انسان مشوهة الحقيقة مشوبة بالنقص

ثالثا — أن الطفل من طبعه الخجل والحياء فهو من أجل ذلك يخشى أن يفصح عما يعانيه بنفسه لئلا يكون خطأ فيضحك منه . من ذلك نعلم أن جل ما وصل الينا عن تجارب الاطفال وخبرتهم لبعض الشيء قد أتانا من طريق خطأ — طريق عقولنا نحن الكبار في السن

فالواجب على الباحث الدقيق

أولا — أن يكون مستحضراً في ذهنه أيام طفولته حتى يمكنه أن يصف

لنا مما لاحظه هو عن نفسه

ثانيا — أن يكون من صفاته العطف على الاولاد لانه من الضروري جداً أن يشترك الباحث مع الاطفال فى أفراحهم وأحزانهم وآلامهم ويتنزل بعقله الى مداركهم وأخلاقهم ولا يكون ذلك لشخص من طبعه الخشونة والجفاء

ثالثا — أن يكون من ذوي الخبرة والدراية بعلم النفس حتى يتسنى له أن يحصر النتائج التي يصل اليها في بحثه

يقول الانسان منا « أظن كذا » و « أريد كذا » و « أشعر بكذا » وبعد كل هذه العبارات يترجم عما في باطنه وما ينطوي عليه. فاذا سئل الواحد منا عن الشيء الذي به « يشعر » و « يفكر » و « يريد » قال انه « العقل ». يقول أن العقل هو مركز الشعور والارادة والفكر ولكنه لا يفقه كنهه ولا يدرك حقيقته لان ذلك لا يزال مجهولا للآن اذ لم نعرف عن العقل الا أعماله فقط

ولقد ورد في الانجليزية أن الكلمات Spirit, soul, mind وكلها بمعنى وورد في العربية أن العقل والقلب والنفس بمعنى أيضا — يقال عقلت الدابة اذا ربطتها ومن ذلك سمي العقل عقلا لانه يعقل الانسان أي يعصمه من الوقوع في الخطأ . ولقد ورد في القرآن الشريف استعمال القلب بمعنى العقل لقوله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » « وإن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (عقل) أو ألقي السمع وهو شهيد » وورد في القرآن الشريف استعمال النفس في موضع العقل الذي يأمر بما يأمرها به (ولو أن العبارة الاخيرة مخالفة لمعنى العقل الحقيقي كما قدمنا) قال

تعالى عن لسان يوسف عليه السلام « وما أبرىء نفسي ان النفس لامارة بالسوء » وقال تعالى « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » وقال تعالى « فسولت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من النادمين »

﴿ العلاقة بين الجسم والعقل ﴾

الجسم هو الوصلة بين العقل والعالم الخارجي . به يعمل العقل في الاشياء وبه تؤثر الاشياء فى العقل . الا أن الجسم اكبر من أن يكون مجرد واسطة لما له بالعقل من الرابطة القوية الغريبة . ذلك بأن كل حركة عقلية تستصحب حركة جثمانية خاصة بها حتى أصبحت كعلامة لها فالفرح والحزن واليأس والرجاء كل له علامة جثمانية مميزة

هذا من جهة ومن جهة أخرى نقول أن كل حركة عقلية انما هي فى الواقع تابعة لحركة جسمية بأى شكل من الاشكال وما الاحساسات الا نتيجة العوارض التى تطرأ على الاعضاء فتؤثر فيها

فالزكام مادام موجوداً يفقد الانسان حاسة الشم . ولقد يظهر تأثير الجسم فى العقل في مواطن أخرى غير الاحساسات منها . ان قوة ارادة الانسان متوقفة كلها على العضلات فاذا كان الانسان منهوك القوى في آخر الليل بسبب مجهود جثماني أتاه فانه لا يستطيع أن يؤدي أموره العقلية كما لو نام ليلته واستجمع قواه . ولقد لاحظ الناس من قديم الزمان أن صحة العقول متوقفة على صحة الابدان حتى ورد عن اليونان « أن العقل السليم في الجسم السليم » اذن فليس الجسم مجرد واسطة وانما هو أحد العوامل المهمة التي يعول عليها في استقراء حالات العقل واستقصاء حركاته

سكنانه فلا بد من دراسة المجموعة العصبية اذا أراد الانسان أن يفهم وظائف العقل فهما جيداً

﴿حالات العقل﴾

للعقل حالات كثيرة مختلفة مشتبكة الا أن العلماء اتفقوا على ثلاثة منها ذات أهمية كبرى وهي

(١) الشعور أو الانفعال ويشمل ذلك كل ما ينتاب النفس من أفراح وآلام وغيرها من الاعراض فالظمأ والنظر والحب والغضب كله شعور

(٢) المعرفة وتشمل جميع حركات العقل التي تؤدي الى تمييز سنحات الخاطر بعضها من بعض فالذاكرة والتخيل والمحاجة كلها ضروب من المعرفة

(٣) الارادة أو الخيرة وتشمل جميع الحركات العقلية التي من شأنها أن تؤدى الى العمل ويدخل فيها الانتباه والبواعث والعزم وغير ذلك

وقد تسمي هذه الحالات الثلاث بوظائف العقل وهي الاعمال الخاصة التي يقوم بها هو لا غيره. ولا يتوهمن القارىء أن كل واحدة منها « جزء » من العقل بل انها كما قدمنا « حالات » أو « مظاهر » يتجلى فيها العقل الواحد

﴿علائق هذه الحالات بعضها ببعض﴾

من العجيب أن هذه الحالات مرتبطة ببعضها تمام الارتباط ويتجلى العقل فيها جميعها في كل حركة من حركاته مثال ذلك اذا سقط ولد على الارض وانكسرت رجله فاني أتكدر من أجل ذلك وهذا هو شعور ثم أنظر الى رجله المكسورة وأرى ضرورة جبرها وربطها وهذه هي معرفة فاشرع في عمل ذلك وهذه هي ارادة

كذلك اذا سمع انسان بأن صديقا له نجح في امتحان عويص وهذه معرفة فانه يفرح لنجاحه وهذا هو شعور فيسرع في كتابة التهاني اليه وهذه هي ارادة

بمثل هذه الامثال نعلم أن سلسلة الخواطر مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً لا انفصام له. الا أن الانسان ربما يتساءل اذا كان في الامكان الحصول على كل من هذه الحالات العقلية على حدتها بمعنى أنه يحصل على مجرد شعور فقط أو معرفة فقط أو ارادة فقط لا علاقة لاحدها بالاخريين

يحرق طفل اصبعه فيظهر لاول وهلة ان هذا مجرد شعور لا علاقة له بالحالتين الاخريين

ولكننا نرى أنه يمازج هذا الشعور شيء من المعرفة لان الطفل يميز أن العضو الذي أصابته النار فاحترق انما هو أصبعه لا قدمه أو وجهه. ثم أنه ينظر الى تلك الاصبع المحروقة وهذا الانتباه ضرب من ضروب الارادة وعلى ذلك فالمعرفة والارادة في هذا المثال قد وجدناهما يستصحبان حالة كنا نظن لاول وهلة أنها مجرد شعور. وهكذا لو فحصنا كل حالة من الحالتين الاخريين نجد أن الشعور والمعرفة والارادة كلها صفات متلازمة مميزة للعقل لا يمكن فصلها عنه ولا فصل بعضها من بعض كما لا يمكن أن يفصل كتاب من شكله أو وزنه ولونه. هذه الحالات التي نحن في صددها يمكن تصويرها بثلاث دوائر ا ب ج كلها متقاطعة محصورة في دائرة ا في أعلا الدائرة الكبرى المحيطة بالثلاث دوائر ودائرة ب على اليمين من أسفل ودائرة ج على اليسار من أسفل أيضاً

فاذا نظرنا الى العقل من نقطة في ـ ا ـ وهي دائرة الشعور مثلا وجدنا

أنه يدخل فيها شيء من دائرتي ب و ج كناية عن المعرفة والارادة واذا نظرنا اليه من نقطة في ب دائرة المعرفة وجدنا أنه يدخل فيها شيء من الارادة أو ج رمزا الى الشعور والارادة وهكذا تتمشي الدوائر بل تلك الحالات بحيث لا يمكن فصل أي واحدة منها عن الاخريين . ولكن لما كان من السهل استقراء شيء واحد في وقت واحد رأينا أن نستقرىء كلا من هذه الحالات بمفردها كأنها مستقلة بنفسها وهنا نحذر القارىء ثانية أن يظن من كثرة الاصطلاحات المستعملة في تمييز الحركات العقلية مثل الذاكرة والانتباه وغيرهما ان العقل مركب من جملة أجزاء مختلفة كما أن الجسم مركب من جملة أجزاء مختلفة منها الرأس والايدي والارجل — ذلك هو عين الخطأ

(تلى) محمد حمدي

المنبر العام

الشعر والشعراء

١

« لحضرة الفاضل صاحب التوقيع »

أستهديك اللهم هداياتك وأصلي وأسلم على خير من بلغ رسالتك

أما بعد فهذه حياة حديثة في الادب قد طرقت بابها وأسأل الله أن يشملني بعنايته ويهب لي قوة المثابرة والسلام

﴿ نظرة عامة في الشعر ﴾

تعريف الشعر — فطرية الشعر — مظاهر الشعر — اشتراك الامم فيه — مزية الشعر والشاعر — موافقة الشعر للطبائع — واختلاف الامم في طرقه — تقسيم الشعر —

﴿ تعريف الشعر ﴾

الشعر هو ما ركب من قضايا ترتاح اليها النفس

﴿ فطريته ﴾

اذا تأمل المتأمل في قوى الانسان الغريزية وجدها انما ترجع الى ثلاثة مراجع . الى قوى عقلية وهي التي تتناول العلوم والمعارف النظرية . والى قوى حسية وهي التي تتناول الاعمال المتعلقة بالحواس وهي الصنائع . والى قوى تأثيرية أو شعرية وهي التي تتعلق بشعور الحاسات الباطنية فتبرزها بما يؤثر في النفس وينال من القلب وقعاً حسناً . وحينئذ فليست ملكة الشعر في الانسان من الامور المستحدثة بل هي ملكة سليقية وجدت فيه منذ فطرته حتى أنك لترى فيه نزوعا الى الترنم ليحاكي الطيور في أوكارها فان أجهده عمل أو أعياه عناء تشاغل عن متاعب عمله وعالج عناءه بالترنم الذي يسري عن نفسه بعض الألم ويدفع عنها شيئاً من السآمة التي تحيط بها

﴿ مظاهره ﴾

واذ قد علمت أن مرجع الشعر الى القوة التأثيرية فلا بد له من استدعاء لوازم التأثير ليزداد وقعه في النفوس وتتضاعف لذة صوته في الاسماع فتصبو اليه القلوب وتميل الحواس . هب الانسان ليستمتع بمظهر الجمال حتى يأخذ بتلابيب الطبيعة ويمسك باهداب الاحساس فلم يجد لذلك مظهرا أكمل ولا أجمل من أن ينتظم في قالب نقي ونغمة شجية شأن كل مؤثر طبيعي فان مثابته الآن

مثابة الصورة التى تعرض لتحوز اقبالا من النظارة واعجابا من المتأملين فان لم تكن جميلة الوضع محكمة الصنع أعرض الناظر عنها ونأي بجانبه

﴿ اشتراك الامم فيه ﴾

ولما كانت طبيعة البشر واحدة لا تتغير بتغير الازمنة والامكنة كانت ملكة الشعر عامة في جميع الامم والاجيال يتخذونها مظهرا لعواطفهم وحواسهم ومترجما عما انطوت عليه جوانحهم . ومن أجل ذلك كان أعدل شاهد على أخلاق الامم وعاداتهم

﴿ مزية الشعر والشاعر ﴾

قال بعض الاذكياء . الشعر كشف ما ينطوي عليه قلب الانسان من أعمق الاسرار بواسطة تخيلها وظهورها فى مظهر حسي . واذا قيل أن المنثور يتجه الى التصور فالشعر يتجه الي التصور والاحساس معا

ولما كان من مقتضيات الشاعر أن يشترك بين عالم الحس وعالم التصور كما علمت كان لابد أن يكتسب صفة الشيء بعد أن يحيط به علما آخذا بجميع أطراف معانيه . ولذلك كان بعض الامم يلقبون الشاعر بالموجد أو المبدع لأنه تعمق في معرفة الشيء حتى أوجد منه ما كان خفيا على غيره

﴿ ترسم الشعر خطو العلم والمعتقدات ﴾

الشعر وان كان قديما فى الوجود حي نام تنطبع في صحيفته أخلاق أمته وجيله في عصرهما . فهو دائما يترسم خطو العلم وان كان أقدم منه . فاذا رأيت شعر الهنود مثلا رأيته مبهما مهوّشا كما كانت تصوراتهم الفلسفية أو تأملت شعر العرب وجدته صافيا فى بعض الاطوار كدرا فى بعضها باختلاف الجاهلية والاسلامية . وأما شعر اليونان فترى فيه من السهولة والبلاغة

والسلاسة والانسجام مايشرب به العقل فان الفكر عند الهنود كان سائداً على المباشرة والشكل . وأما عند اليونان فكان بعكس مارأيت . ذلك لان أولئك يكتبون بحسب هوى أفكارهم وأما هؤلاء فكما تقتضيه الحواس ويتطلبه الشعور والوجدان . فترى في شعرهم روح الفرح والسرور والهشاشة والبشاشة حتى اذا انتقل الشعر منهم الى الرومان تغيرت حالته فبعد أن كان مطربا مرقصا صار يؤذن بالرزانة والكبرياء . وأما العبرانيون قبل اليونان والرومان فكانت لهم اعتقادات وأفكار دينية قصرت عن ادراكها حكمة أولئك الفلاسفة . ولذلك ترى شعرهم يمثل الفخامة والعظمة والسمو والادب . ولما اتصلت الديانة المسيحية بالغرب هدمت تلك الاركان القديمة فانقلب نفس الشعراء وسري فى شعرهم روح الدين والآخرة وما كادت تنقضي القرون المتوسطة حتى دار الانقلاب في الشعر دورته فدخل فيه القصص والحكايات وما يتعلق بالاحساسات البشرية حتى شاع فيه المجون وأكثر ما كان ذلك في اسبانيا (الاندلس) أما انجلترا فحافظت فيه على العظمة والسمو وظهرت الرزانة في شمال أوربا وجنوبها وأما فرنسا فلم تحتمل ذلك زمانا طويلا بل أفرغت شعرها فى قوالب الهجا والهزل ثم نسجت فيه على آثار ظواهر الهيئة الاجتماعية لولا بقية من شعر أرباب التعقل والدين الذين نبغوا فى القرون المتأخرة لم يحز ذلك الرونق الجليل

﴿موافقة الشعر والتوقيع للطبائع واختلاف الامم فيهما﴾

ان للاقليم والهواء لاشد تأثير في طباع الامزجة . فمن الناس من تلعب بفؤادهم الخفة ويستولى عليهم الطرب بمجرد سماع أي توقيع وهم أهل الاقاليم الحارة كالسودان مثلا . فان زادت الخفة معهم قليلا طوحت بهم في

في مهاوي الحمق والطيش

والسبب في ذلك على ما ذهب إليه العلامة ابن خلدون أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه. وطبيعة الحزن على النقيض وهو انقباضه وتكاثفه وأن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فينتشي الروح ويجيء طبيعة الفرح. وكذلك تجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فشعرت بذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور

ومن ثمّ اختلف وزن الشعر وتركيبه وتنسيقه بين الامم اختلاف طرق الموسيقى والالحان. فرب نغمة تطرب محموداً وتغضب زيدا وتلذ خالداً وتقبض حسنا. وعليه نرى أن الشعر العربي عندنا ألذّ وأطرب مع كثرة الموافقة لطبيعتنا. وما يقاربه من شعر سائر الامم أقبل لدينا مما يبعد عنه وكذلك الحال عند غيرنا. ولذلك يتعذر أن يكون شعر الاقاليم الحادة موافقا لاهل الاقاليم الباردة أو بالعكس مثلا كما هو حال الموسيقى. فان اليونانية منها مثلا أوقع في قلوب العرب من موسيقى سائر أهالي أوربا لقرب أقليم اليونان من أقليم العرب أولا ثم لكثرة الاتصالات القديمة بينهم وبين الامم الشرقية الامر الذي يجعل شديد الائتلاف في الذوق والعادات. ومن جراء ذلك نرى الاتراك والفرس والعرب واليونان متقاربين ذوقا في ذلك وفي نظام شعرهم كتقارب ذوق الامم الشمالية في الامرين معا

من تتبع اساليب الشعر وأنعم فيها النظر وجد أن الشعر ينقسم الى قسمين

كبيرين. وذلك لانه منه ما يعبر الشاعر به عن عواطفه وعواطف ذويه كما تشعر به النفس من الحب والشوق والحماسة والفخر والرثاء وما علمته بطول الاختبار والتعقل كالحكم والامثال وهذا ما يسمى الشعر الغنائي. ومنه ما ينظم الوقائع ونحوها ويسمى القصصي وأكثر ما كان في القرون المتأخرة

هذه الكلمة اقتطفناها من كل آراء القوم لتكون تمهيدا للكلام على الشعر العربي وسنوالي الكلام عليه منذ نشأته حتى اليوم ان شاء الله

محمد حسن نائل المرصفي

طريف التآليف

الفرق بين الفرق

(وبيان الفرقة الناجية منهم)

الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم كتاب قيم ألفه الامام الاستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي من جلة علماء القرن الخامس أحصى فيه الفرق وبين آراء كل فرقة منها وما هي عليه من باطل ولم يأل جهدا في تفنيد مزاعمهم وادحاضها وتسجيل ما أخذ عليهم

كان هذا الكتاب النفيس على شدة الحاجة اليه في حكم المفقود اذ لم يكن منه الا نسخة واحدة في المكتبة الملوكية في برلين

وقد وفق الله لابرازه وطبعه شابا فاضلا ألمعيا هو حضرة محمد بدر بك أحد أعضاء الجمعية الملوكية بابد نبرج ومحرري دائرة المعارف الاسلامية بليدن والحائز لشهادات الشرف من الدرجة الاولى في المنطق وعلم النفس والفلسفات من جامعة بن بالمانيا فقد نسخ هذا الكتاب بالقلم والتصوير الشمسي ووافق فراغه